

الحركة الصوفية في حلب المعاصرة

أشكالها وآثارها

محمد نور النمر⁽¹⁾

المقدمة

على أرض حلب وبفتوى فقهاء أُعدم اثنان من أشهر المتصوفة في التاريخ الإسلامي بتهمة الكفر والخروج عن الإسلام، هما: أبو الفتوح شهاب الدين السهروردي المقتول (587هـ/1191م) صاحب الدعوة الإشرافية، وعماد الدين النسيبي (820هـ/1417م) صاحب الدعوة الحروفية الذي سلّخت جلدُهُ رأسه حيًّا، وعُلّق على باب خان الشونة المقابل لباب قلعة حلب.

لا تنفي هاتان الوقعتان السابقتان كون حلب مدينة عريقة في صوفيتها، فقد عاش على ثراها أكثر من مئة متصوف بارز في تاريخها⁽²⁾، وزارها كبار المتصوفة، من مثل مولانا جلال الدين الرومي ومحيي الدين بن عربي وغيرهما، وسُميت كثير من حاراتها ومقابرها ومساجدها بأسماء صوفية، وانتشرت الزوايا والتكايا والخوانق والربط في أغلب حاراتها القديمة التي احتضنت مدافن الصوفية وأضرحة أوليائها⁽³⁾.

حلب مدينة مفتوحة على جهاتها الأربع، اجتمعت فيها القوافل التجارية من بلاد الترك، والفرس، وبلاد الحج والعراق، ومصر وأرض المغرب وصولاً إلى الأندلس، وهو حالها أيضاً لمن حضر إليها من رحالة العلم والفكر والتصوف، فكانت بوتقة انصهرت فيها تجارب المتصوفة الكبار - القادمين إليها من تلك البلاد - ومركزاً لزواياهم، وهذا ما جعل حلب واحدة من أهم حاضرات التصوف الإسلامي، ومنارة من مناراته على مدى العصور المتوالية.

فقد شكل التصوف هوية حلب الخاصة التي طبعت حياتها الثقافية والاجتماعية، تماماً مثلما أغنت الحياة الثقافية والاجتماعية والتجارية هذه الهوية في كثير من خصائصها وسماتها.

وفي القرن العشرين عبرت الحركة الصوفية عن نفسها في حلب من خلال ثلاثة أشكال أساسية، وهي:

أولاً؛ المدارس الدينية: وهي المدارس التقليدية التاريخية المتبقية من العهود السابقة، مثل (الخنسرية

(1) محمد نورالنمر: عضو هيئة التحرير في مجلة «قلمون»

(2) جمع عبود العسكري كل هؤلاء المتصوفة مع الطرق التي ينتمون إليها من كتاب نهر الذهب في تاريخ حلب للمؤرخ محمد راغب الطباخ، وكتاب خطط الشام للكاتب محمد كرد علي. كما جمع العسكري كل الخوانق والربط والزوايا الموجودة في تاريخ القديم والمعاصر. عبود العسكري، تاريخ التصوف في سوريا: النشأة والتطور، الزمان، المكان، الإنسان، (دمشق: دار النمر، 2006)، ص 157 - 175.

(3) نذكر منها: جامع السهروردي في منطقة باب الفرج، جامع عبد القادر الجيلاني في حي الصالحين، وجامع إبراهيم الأدهم في منطقة السريان، وجامع معروف الكرخي في حي الشيخ مقصود. ومنها أيضاً حي الصالحين، وتكية النسيبي وقبره موجود فيها، وأيضاً الشيخ جاكبر الذي سمي باسمه الحي والمقبرة الجامع الذي بُني جانب قبره.

والشعبانية والكلتافية) التي تبنت خطأ صوفيًا خاصًا في مناهجها التعليمية الدينية ونظامها التربوي. ثانيًا؛ الطرق الصوفية: وهي الطرق المتبقية من الطرق والزوايا التاريخية التي كانت منتشرة في مدينة حلب، واستمر وجودها خلال النصف الثاني من القرن العشرين حتى الآن، وقد اخترنا الطرق الأكثر انتشارًا وحضورًا فيه، مثل: النقشبندية والشاذلية والرفاعية والقادرية. ثالثًا؛ العلماء الرسميون: وهم الذين شغلوا مناصب رسمية في الدولة تتعلق بالأوقاف والإفتاء، مثل: أحمد بدر الدين حسون، وصهيب الشامي، ومحمود العكام. وقد تركت الحركة الصوفية بأشكالها المختلفة آثارها العميقة في الحياة الثقافية في مدينة حلب بكل ميادينها وفنونها.

إشكالية البحث وأسئلته

لمّا كانت الحركة الصوفية في حلب هي الموضوع الذي ندرسه في هذا البحث، فإنّ أشكال الحركة الصوفية (مدراس دينية، طرق صوفية، علماء رسميون) التي سنعرضها هنا ما هي إلاّ الأنماط المتعددة التي عبرت بها الحركة عن ذاتها، أو بالأحرى التساؤل: هل الحركة الصوفية في حلب اتخذت شكلًا واحدًا في التعبير عن ذاتها أم أشكالًا عدة وبمضامين مختلفة؟ وإذا كان التصوف هو المجال الأهم الذي نعثر عليه في إهاب الآثار الثقافية والفنية والأدبية في حلب، فإن القسم الثاني سينصب على دراسة بعض هذه الآثار في الإنشاد الصوفي، والشعر، والرقص، والفن التشكيلي، وفن الخط الحروفي، في حين ينصب القسم الأول منه على التساؤل: هل من الممكن العثور على تصوف واحد في حلب تعددت أشكال تمظهره، أم إنه تصوف متعدد ولكل شكل منه بنيته الخاصة؟ يسعى البحث إلى الإجابة عن السؤال الرئيس، وهو: ما النشاط الذي تنهض به الحركة الصوفية في الحياة الثقافية لمدينة حلب؟ ومنه تنبثق مجموعة من الأسئلة الفرعية التي يمكن إجمالها في:

1. ما الحركة الصوفية في مدينة حلب وما أشكالها؟
2. ما الآثار الثقافية التي تركتها الحركة الصوفية في مدينة حلب؟

أهداف البحث

1. يستهدف البحث التعرف إلى الحركة الصوفية في مدينة حلب، خاصة في النصف الثاني من القرن العشرين، من خلال الكشف عن الأشكال الآتية:
 - أ. المدارس الدينية (الخرافية والشعبانية والكلتافية).
 - ب. الطرق الصوفية المنتشرة في حلب (النقشبندية والشاذلية والرفاعية والقادرية).

- ت. العلماء الرسميون من أمثال: صهيب الشامي ومحمود العكام وأحمد حسون.
2. الكشف عن الصور المختلفة التي تركتها الحركة الصوفية في الحياة الثقافية⁽⁴⁾ في مدينة حلب.

منهج البحث

في عمل فكري يجمع بين الدراسات الصوفية الفكرية والاجتماعية لا يمكن الاعتماد على منهج واحد، فنحن بحاجة إلى مركب منهجي يجمع بين المنهج التاريخي ومنهج الدراسات الاجتماعية مع منهج التحليل للتعرف إلى أشكال الظاهرة الصوفية في حلب وآثارها.

1. المنهج التاريخي: للعرض الدقيق والمنظم لتطور الحركة الصوفية في مدينة حلب.
2. منهج الدراسات الاجتماعية، خصوصاً طريقة المقابلة المعمقة مع طلاب المدارس الدينية ومريدي الطرق الصوفية وشيوخها، التي تسمح بالتعرف على طبيعة التجربة الصوفية التي عاشها هؤلاء، إضافة إلى إجراء مقابلات معمقة مع ممثلي الحركة الثقافية (بكل أشكالها) التي تأثرت في الأفكار الصوفية في مدينة حلب.
3. المنهج التحليلي والتحليلي المقارن، للوقوف على تأثيرات الحركة الصوفية على الحركة الثقافية في حلب⁽⁵⁾.

أولاً: أشكال التصوف في مدينة حلب

1. المدارس الدينية⁽⁶⁾

وهي المدارس الثلاث التي بقيت بعد قرار التوحيد الشرعي المتعلق بالمدرس الدينية عام 1949م: المدرسة الخسروية، والمدرسة الشعبانية، والمدرسة الكتاوية. وهي المدارس التي جعلت من التجربة الصوفية مؤسسها خلفية فكرية وهدفاً منشوداً لكل الطلاب والمدرسين والقائمين عليها، وفي ما يلي نقدم صورة موجزة عنها:

أ. المدرسة الخسروية، أو أزهز حلب

(4) لا يستهدف بحثنا علاقة الحركة الصوفية بالسياسة في حلب، لأن هناك دراسات كثيرة جداً أكدت - في معظمها تبعية بعض الطرق الصوفية للنظام الاستبدادي ودعمها له؛ ونحن نعتقد بصوابية هذا الرأي جزئياً. ومن هذه الأبحاث الكثيرة: «علاقات حرجة: التصوف والدولة في سوريا»، <http://alaalam.615021116-org/ar/translations-ar/item/424>، وأيضاً: الطرق الصوفية في الأزمنة السورية وحدة الجذور واختلافات المصير، وأيضاً: «الجماعات الصوفية والإسلامية الأنماط الجديدة للتدين في سوريا»، من كتاب الإسلام النائم: التصوف في بلاد الشام، (مركز المسبار للدراسات والبحوث، دبي، 2013م).

(5) لا يستهدف بحثنا التقويم الفني والأدبي للآثار الثقافية التي تركتها الحركة الصوفية في حلب، بل يستهدف عرض هذه الآثار بأشكالها المختلفة دون تبيان قيمتها الفنية أو الأدبية، لأن المجال لا يتسع في هذا البحث للقيام بهذه المهمة، فضلاً عن أن كل جانب من جوانب الحياة الثقافية الفنية والأدبية بحاجة إلى باحثين أكثر تخصصاً في كل واحد من هذه المجالات.

(6) وهي المدارس الوقفية العثمانية المنتشرة في مدينة حلب، وفي عام 1920م كان عددها اثنتي عشرة مدرسة، وهي: المدرسة العثمانية، المدرسة الشعبانية، المدرسة الخسروية، المدرسة الحلوية، المدرسة القرضاوية، الإسماعيلية، المدرسة السيفية، المدرسة الهائية، جامع الحاج موسى، المدرسة الأسدية، المدرسة الدليوتية، المدرسة الهاشمية. عدنان كاتبي، التعليم الشرعي ومدارسه في حلب في القرن الرابع عشر الهجري، (حلب: مديرية الكتب الجامعية، المطبعة الرقمية، 2006)، ص 37.

وهي أول مدرسة أنشئت في العهد العثماني، أوصى بإنشائها والي حلب (خسرو بن سنان باشا) سنة 951هـ⁽⁷⁾، وقد جددها الشيخ محمد راغب الطباخ سنة 1921م، عندما أدخل المواد العلمية (الجبر والهندسة والحساب والفيزياء والكيمياء واللغة الفرنسية) إلى مناهجها الدينية. وفي سنة 1948م توحدت مع المدرسة الشعبانية، وفي 1959م صار اسمها الثانوية الشرعية إلى يومنا هذا، وفي عام 1972م صدر قرار بتعديل شهادتها لتصبح موازية للثانوية العامة. وقد درّس فيها كثير من النخبة الدينية الحلبية أمثال: الشيخ مصطفى الزرقا، والشيخ معروف الدواليبي، والشيخ محمد جبريني، والشيخ نجيب خياطة، والشيخ محمد النهان، والشيخ عبد الوهاب سكر، والشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والشيخ عبد الله سراج الدين، والشيخ أحمد قلاش. وتخرجت فيها أيضًا النخبة التي سيطرت على الحياة الدينية الحلبية، أمثال: الدكتور إبراهيم سلقيني مفتي حلب، والدكتور أحمد أديب حسون مفتي سورية، والدكتور صهيب الشامي مدير أوقاف حلب، والدكتور محمود عكام مفتي حلب⁽⁸⁾.

وفي عام 1972م تحولت المدرسة الخسروفية من مدرسة دينية داخلية إلى مدرسة حكومية تابعة لوزارة الأوقاف تدرس مناهج وزارة التربية السورية (التاريخ والجغرافيا والرضيات والفيزياء والكيمياء)، إضافة إلى المواد الدينية التي تفرضها وزارة الأوقاف (الفقه والعقيدة والتلاوة والخطابة وغيرها)، وتخضع للنظام التعليمي الذي تفرضه وزارة التربية (ما عدا اللباس فقد كان لباسًا شرعيًا). وقد انتشر هذا النموذج الذي شكلته هذه المدرسة في مدينة حلب وريفها، وكانت بعض هذه المدارس داخلية، وعلى شاكلتها استحدثت عدد من المدارس الشرعية للإناث في الريف والمدينة، وقد عممت الحكومة هذا النموذج على المدارس الدينية كلها في سورية.

وقد نجم عن تعميم هذا النموذج الذي فرضته الحكومة غياب مادة التصوف بصفتها مادة مستقلة من المقررات الدراسية الرسمية، وصار حضور التصوف في المقررات سائرًا رهناً بالاتجاهات الشخصية لكل مدرس، وامتازت الخسروفية بأن مدرسيها تابعوا بث أفكارهم الصوفية خلال المقررات الدراسية جميعها فيها.

ب. المدرسة الشعبانية

أسسها في العهد العثماني شعبان آغا عام 1085هـ، وقد مرت تاريخيًا بمراحل الازدهار والضعف العلمي، إلى أن أشرف على تجديدها الشيخ عبد الله سراج الدين بعد أن أصبح مديرًا لها.

وكان مدرسوها من نخبة مدينة حلب، أمثال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والشيخ عبد الوهاب التونجي، والشيخ مجيب خياطة، والشيخ إبراهيم ترماني، والشيخ أحمد قلاش، والشيخ عبد الله سراج الدين. وقدرت هذه المدرسة طلابًا أصبحوا فيما بعد جزءًا من النخبة الدينية الحلبية، ومنهم: الشيخ فاروق النهان، والشيخ عدنان الغشيم، والشيخ عبد الباسط حسون، والشيخ بكري حياني.

واقترنت مناهجها الدراسية على المواد الدينية، مع حضور قليل للمواد العلمية مثل الفيزياء والكيمياء والجغرافيا في المرحلة المتأخرة من الدراسة فيها. ولم تسع المدرسة الشعبانية إلى الاعتراف الرسمي من وزارة التربية السورية - على غرار المدرسة الخسروفية - للمحافظة على استقلالها الفكري والإداري.

(7) انظر: كمال الدين بكرو، التعليم الشرعي في حلب منذ عام 1918م إلى عام 1958م، (دم، دن، 1998)، ص 77.

(8) عدنان كاتي، التعليم الشرعي ومدارسه في حلب في القرن الرابع عشر الهجري، ص 78 وما بعدها.

يحضر التصوف فيها من خلال مادة الأخلاق، التي تتناول أخلاق المتصوفة ومواقفهم الحياتية وكراماتهم وغيرها، إضافة إلى كتب الشيخ عبد الله سراج الدين، ومنها: السيرة والشمائل النبوية⁽⁹⁾. كما تقام مجالس الذكر في يومي الأربعاء والجمعة، والتي يُقرأ فيها صحيح البخاري إضافة إلى كتب الأذكار والأدعية للشيخ سراج الدين، ومذاكرة كتب التصوف الكلاسيكية، ومنها: إحياء علوم الدين للغزالي، وتلخيصه في موعظة المؤمنين⁽¹⁰⁾.

وعلى الرغم من عدم وجود درس له صلة مباشرة في التصوف - سوى مادة الأخلاق - إلا أن الأفكار الصوفية تحضر في كل الحصص الدراسية من خلال الاستشهاد بالأولياء الصالحين وسيرهم ومقولاتهم وتأويلاتهم ومواقفهم⁽¹¹⁾.

ت. دار نهضة العلوم الشرعية (الكتاوية)⁽¹²⁾

قامت هذه المدرسة على أنقاض المدرسة القديمة التي أسسها الأمير طقتمر الكتاوي المتوفى سنة 787هـ. وفي عام 1964م «بني الشيخ محمد النهمان (-1900 1974م) جامع الكتاوية ومدرسة دار نهضة العلوم الشرعية، ورفض أي إسهام من الدولة في بناء الجامع والمدرسة»⁽¹³⁾، ووضع أسس المدرسة الجديدة التي تشبه إلى حدٍ بعيدٍ المدرسة الشعبانية في اقتصرها على المناهج الدراسية الدينية وقليل من المناهج العلمية (التاريخ والجغرافيا والرياضيات) التي انتقمتها من مناهج المدراس الحكومية السورية. وإذا كانت المدرسة الشعبانية قد اقتصر طلابها على أبناء المدينة، فإن معظم طلاب الكتاوية كانوا من أبناء الريف، نظرًا إلى الحاجة الماسة لخريجها في الريف الحلبى⁽¹⁴⁾.

تنتقي المدرسة الكتاوية طلابها بعناية كبيرة، إذ تختار نخبة الطفولة الريفية، وشرطهم في القبول حصول الطالب على درجة عالية جدًا في مرحلة التعليم الابتدائي، ويمكن أن تختار بعض أبناء وجهاء الريف أو ممن تزكيمهم، وتجري المدرسة امتحانًا تحريريًا وكتابيًا كغيرها من المدارس السابقة.

بعد أن يرتدي الطالب الجبة والعمامة والكلابية، يُنتزع من أسرته انتزاعًا كاملًا ليعيش في مدرسة داخلية،

(9) وهو الكتاب الذي جاء في ملخصه: هو كتاب نفيس جامع في بيان صفة خلق النبي صلى الله عليه وسلم، وبيان خصائص تلك الخلقة المحمدية العظيمة على وجه مفصل ومرتب ومنقح، وفيه أيضًا فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم، وفي سعة علمه وكثرة علومه، إضافة إلى بيان أخلاقه العظيمة الرفيعة. وختتم الكتاب بسرد أثار سلفية فيها تترك الصحابة والتابعين بأجزائه عليه الصلاة والسلام وأثاره وثيابه وموضع جلوسه وغير ذلك مما لمس الله صلى الله عليه وسلم. عبد الله سراج الدين، سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - شمائله الحميدة، وخصاله المجيدة، ط7، (حلب: دار الفلاح، دت)، ص629، 627. ومن كتبه أيضًا: التقرب إلى الله تعالى: فضله، طريقه، مراتبه. عبد الله سراج الدين، ط2، (حلب: دار الفلاح، 1997).

(10) اقتصر المؤلف من الإحياء على اللباب، وجرده من الأحاديث الواهية أو الموضوعية، واستغنى عن بعض الأبواب فيه لورود ما يسد مسدّها في غيرها، وعزف عن المنات من الحكايات والأخبار التي تدور حول كرامات الأولياء وعجائب الزهاد والعباد، ورأى في عرض العقيدة ببساطتها وجمالها وعمق تأثيرها ما يغني عن ذلك كله. محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي، موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، تحقيق: عاصم بهجة البيطار، ط1، (بيروت: دار النفائس، 1981م)، ص33. وهو زبدة كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي.

(11) استقيننا هذه المعلومات المتعلقة ببرنامج المدرسة ونظامها، وحضور التصوف فيها، من مقابلات هاتفية صوتية مع عدد من خريجي المدرسة الشعبانية المقيمين في تركيا.

(12) المعلومات المتعلقة بالحياة داخل المدرسة ونظامها التربوي استقى الباحث معظمها من المقابلات التي أجريت مع عدد من خريجها.

(13) محمد فاروق النهمان، الشيخ محمد النهمان: شخصيته، فكره، آثاره، (حلب: مكتبة دار التراث، 1423هـ) ص358.

(14) انظر: موقع أحباب الكتاوية: <http://www.alkeltawia.com/site2/pkg09/index.php?page=show&ex=2&dir=dpages&cat=653>

فيقضي مدة دراسته - ست سنوات - لا يسمح له بالخروج إلا مرة كل ثلاثة أشهر لمدة 24 ساعة فقط، بحيث يقضي الطالب مدة ست سنوات لا ينام فيها في بيت أسرته مدةً تتجاوز الشهر.

ومع أنّ الطابع صوفيٌّ للمدرسة الكلتاوية إلا أن التصوف لا يحضر بوصفه مادةً دراسيةً كغيره من المواد الدينية الأخرى التي يدرسها طالب المدرسة (الحديث والخطابة والتلاوة والنحو ومكارم الأخلاق)، إنما هناك روح صوفية في المواد السابقة كلها، إذا استدل فيها بأمثلة صوفية أثناء تدريسها، خصوصاً مواقف الشيخ محمد النبهان وتأويلاته وكراماته المختلفة التي تُنقل شفاهياً للطلاب الدارسين فيها؛ من ذلك مثلاً حكاية زيارته لإحدى قرى الريف الحلبي، وكان فيها سكة القطار، وقد رأى الشيخ سيارة تعطلت على هذه السكة، والقطار قادم إليها لا محالة، فرفع يده الشريفة، فتوقف القطار في الحال، ولم يصب أحد بأذى.

يعد يوم الجمعة في هذه المدرسة يوماً صوفيّاً بامتياز، فقبل صلاة الجمعة هناك درس لأحد المشايخ الكبار في المدرسة لمدة ساعة أو اثنتين، في هذا الدرس تُذكر الرقائق والكرامات، ويُذكر الأولياء وحياتهم، ويُستشهد بمواقفهم الحياتية.

وفي الجلسة الأسبوعية التي تعقب صلاة الجمعة تظهر كل التقاليد الصوفية المعروفة، وهي جلسة الذكر التي تبدأ بقراءة القرآن الكريم، يعقها الأوراد النقشبندية الشهيرة، ثم الرابطة الشريفة التي تتضمن أدعية وصفاء وإغماض العيون ليحضر الشيخ في قلب كل طالب منهم. ثم يأتي دعاء الشيخ. وينتهي الختم الشريفة بإنشاد صوفي بصوت منشدي حلب المعروفين مثل المنشد محيي الدين أحمد، وتستمر هذه الجلسة الصوفية حتى صلاة العصر، ولا يعرف طلاب المدرسة في المرحلة الأولى (المرحلة المتوسطة) أن هذه تقاليد صوفية أبداً.

وفي كل يوم الأحد بعد العصر تسمع دروس الشيخ محمد النبهان المسجلة إلكترونياً (كاسيت في ذلك الوقت)، لأن الشيخ لم يكتب أبداً، وعندما سئل عن ذلك، أجاب بأن كل طالب يتخرج من المدرسة هو كتاب جديد له.

لا تسعى المدرسة إلى نيل اعتراف رسمي في شهادتها من وزارة التربية السورية، ولا تسمح للطلاب خلال مدة دراستهم بالتقدم لامتحانات المرحلة الإعدادية والثانوية، بل تسعى المدرسة من خلال مدرستها إلى بناء قدوة للمجتمع، لذلك لا يحتاج طلابها إلى كرتون (الشهادات الدراسية) بل هدفهم الوحيد هو شهادة أنه لا إله إلا الله. تقف المدرسة ضد الاعتراف الرسمي وتحاربه لأن ذلك يحد من استقلالية الإدارة المدرسية وحريتها في فرض المناهج الدراسية وغيرها من القضايا⁽¹⁵⁾.

يقول أحد خريجي المدرسة⁽¹⁶⁾: إن اقتصار المناهج الدراسية على المواد الدينية دون المواد العلمية مثل الفيزياء والكيمياء والرياضيات والتاريخ الجغرافيا، يخلق وهمًا لدى خريجها وهو أنهم أئمة للمجتمع الإسلامي، وقدوة له، في حين إنهم يُصدمون في أول موقف يتعرضون له حول القضايا التاريخية والاجتماعية السياسية العامة، وهم في الأصل يحاربون التلفاز وكرة القدم وغيرها من القضايا والأمور المعاصرة.

ومنها حادثة يرويها خريج المدرسة الكلتاوية عن أحداث الثمانينيات في صراع الإخوان المسلمين مع السلطة الأسدية، فيقول: بعد منتصف الليل، وأزيز الرصاص يتعالى في حلب، جمعتنا إدارة المدرسة وأخذتنا إلى جانب

(15) مقابلة مع أحد خريجي المدرسة عام 1985م، وفضل عدم ذكر اسمه منعاً للإحراج الذي قد يسببه طرح مثل هذه المواقف من المدرسة ونظامها.

(16) مقابلة هاتفية مع أحد خريجي عام 1998م، فضل عدم ذكر اسمه للمحافظة على العلاقة القليلة المتبقية مع زملائه ومدرسيه.

ضريح الشيخ محمد النيهان، كان البكاء والدعاء ليحفظ الله حلب ومدرستنا⁽¹⁷⁾. ويجدر التأكيد على أن الدخول إلى الغرفة التي يوجد قبر الشيخ محمد النيهان فيها له كامل الهيبة والقدسية، وبعد انتهاء الزيارة يتراجع الزوار بخطواتهم إلى الوراء من دون أن يعطوا ظهورهم لقبر الشيخ.

أما علاقة المدرسة الكلتاوية بغيرها من الطرق الصوفية في مدينة حلب فتوضحها الحادثة التي رواها أحد خريجيها في عام 1998م الذي كان يسكن في حي مساكن هنانو شرقي حلب، وكان الرجل مواظبًا على الصلاة في مسجد المتقين في ذلك الحي، وتعرف راوي الحادثة على إمام المسجد الذي ينتمي إلى الطريقة النقشبندية (الخرنوبية)، وكانت الفاجعة بوصول الخبر إلى مسؤولي المدرسة الكلتاوية، فلم تكتفِ الإدارة بمهاجمته متهمه إياه بالتنكر للمدرسة وأفضالها، ومنعه من الدخول إلى المدرسة، إنما أيضًا حرّمته من إكمال دراسته في جامعة الأزهر، وهي المنحة التي تقدمها المدرسة لخريجها لإكمال دراستهم الجامعية هنالك. علمًا أن الجماعة الخرنوبية هي إحدى فروع الطريقة النقشبندية، وهي الطريقة الأم التي تنتسب إليها المدرسة الكلتاوية، وكان الشيخ محمد النيهان قد تربى في أحضان الطريقة النقشبندية، ولازم شيخها، والتزم بأورادها وآدابها، وأخذ نفسه بكل رياضاتها ومجاهداتها⁽¹⁸⁾، فلماذا يُمنع طلاب هذه المدرسة من حضور أي دروس لأي عالم آخر في مدرسة أو مسجد أو طريقة صوفية ينتسب إليها مؤسس المدرسة وشيخها؟

وأما موقف الكلتاوية من الثورة السورية، فإن شيخ المدرسة ومديرها محمود الحوت يحاول الاتكاء على الحديث الضعيف السند⁽¹⁹⁾: السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباد الله، فإن عدل فله الأجر وعلى الرعية الشكر، وإن جار أو ظلم فعليه الوزر وعلى الرعية الصبر، قد اتخذ مواقف متناقضة، منها بعض النقد للنظام والآخر الهجوم على الثورة، ثم انتقل مدة إلى الإقامة مصر لعدة سنوات، ثم عاد إلى حلب عام 2019م، وبعد مدة وجيزة زار أتباعه في مدينة أضنة التركية.

هكذا نجد أن المدارس الثلاث قد كونت أنموذجًا صوفيًا مختلفًا عن الطرق والزوايا الصوفية الموجودة في حلب، تجلّى في ابتعادها عن الأوراد المعروفة في الطرق الصوفية (ما عدا الكلتاوية)، وسعي هذه المدارس الدائم إلى التكوين الديني الصوفي من خلال الدروس الدينية ذات المنهج الكلاسيكي؛ لأن مشايخها المؤسسين معظمهم قد ورثوا التعاليم الصوفية من التجارب الصوفية التي عاشوها في الزوايا الحلبية.

2. الطرق الصوفية

لم تكن ولادة الزهد - بوصفه مثل مرحلة أولى في تاريخ التصوف - ترفًا فكريًا أراد أصحابه تقديم نظريات عن الوجود والقيم؛ بل هي العودة إلى روحانية الإسلام والتمسك بها، والانطلاق منها في بناء الحياة الاجتماعية والتربوية والأخلاقية الإسلامية.

التحول الأول في تاريخ التصوف هو الانتقال من الزهد إلى التصوف المعرفي، وهو العهد الذي كتب فيه

(17) روى الحادثة خريج المدرسة عام 1985م في أثناء المقابلة.

(18) محمد فاروق النيهان، الشيخ محمد النيهان: شخصيته، فكره، آثاره، ص 360.

(19) محمد بن عبد الرحمن السخاوي، المقاصد الحسنة، محمد عثمان الخشت (محققًا)، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1985)، ص 181، رقم الحديث: 207.

المتصوفة تجربتهم العميقة في نصوصٍ مُبدعة، فقدموا من خلالها أفكارهم ونظرياتهم الصوفية المختلفة. ومع بداية النصف الثاني من القرن السابع الهجري بدأ التحول من التصوف المعرفي إلى التصوف الطريقي، وهو العهد الذي نشأت فيه الطرق الصوفية في العهد المملوكي (648هـ - 923هـ).

في الدولة العثمانية نال التصوف اهتمامًا كبيرًا، عندما أولت إدارتها أصحاب الطرق المنسوبين لآل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم اهتمامًا كبيرًا وعناية، ومنحتهم امتيازات منها إعفاؤهم من الضرائب ومن الخدمة العسكرية، كما صرفت لهم معاشات، وأكرمتهم بالخاتم السلطاني على أنسابهم⁽²⁰⁾، فقال عنها الغزي: الطرائق العلية في حلب كثيرة جدًا كالطريقة القادرية والرفاعية والدسوقية والنقشبندية والبديوية والأردبيلية⁽²¹⁾. ولم يبق إلا القليل من هذه الطرق، وهي التي يستهدفها بحثنا (الطرق الأكثر انتشارًا وحضورًا)، وهي أربع طرق: النقشبندية والشاذلية والرفاعية القادرية.

أ. الطريقة النقشبندية

وهي إحدى الطرق الشهيرة المنتسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بسلاسلها الثلاث⁽²²⁾، وصولًا إلى بهاء الدين نقشبند، فهو المؤسس الشيخ أحمد المجددي السرهندي (971هـ - 1034هـ)، ثم إلى الشيخ خالد الشهرزوري النقشبندي (1193هـ - 1242هـ). وتتخذ هذه الطريقة الأحوال منهجًا صوفيًا لها.

وتعد من أهم الطرق الصوفية، لانتشارها الواسع في دول العالم، ومنها سورية، فالنقشبندية تنتشر في كثير من مدنها: الخزنوية التي أسسها الشيخ أحمد الخزنوي في الجزيرة وتركيا، والشيخ أحمد كفتارو في دمشق، وفي اللاذقية الشيخ يحيى البستنجي⁽²³⁾، وفي دير الزور الشيخ عمر النقشبندي. أما في حلب فهي تتفرع إلى ثلاثة فروع أساسية، وهي:

الفرع الأول - جماعة أبي النصر: التي تعود بدايات وجودها في حلب إلى الشيخ محمد أبو النصر⁽²⁴⁾ والتأسيس الرسمي لها في حلب كان زمن الشيخ عبد الباسط أبو النصر⁽²⁵⁾ (1949م) في حي الأنصاري ثم محلة سيف الدولة، وصولًا إلى ابنه الشيخ إسماعيل أبو النصر، الذي استلم الطريقة منذ عام 1982م حتى الآن، وبعدها انتقلت إلى حي الفرقان في حلب. وهي الجماعة التي أخذ عنها الشيخ محمد النبهان مؤسس المدرسة الكتاوية.

الفرع الثاني - جماعة الخزنوية: تعود أصولها إلى الشيخ أحمد الخزنوي (1887م - 1950م) في منطقة

(20) انظر: عبد الجواد الإيبو، مواقف صوفية إبان الاحتلال الفرنسي 1920 - 1946م، (بحث مقدم في مرحلة الماجستير، كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية، 2005م)، ص30.

(21) كامل بن حسين الحلبي الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج1، ط2، (حلب: دار القلم، 1419هـ)، ص155.

(22) وهي سلسلة آل البيت المسماة بسلسلة الذهب، والتي تبدأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم. والثانية العلوية التي تبدأ من الرسول صلى الله عليه وسلم إلى علي بن أبي طالب. والثالثة هي السلسلة الصديقية من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر الصديق. عبد المجيد بن محمد الخاني، الحقائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية، ط2، (أربيل: دار ناراس للطباعة والنشر، 2002م)، ص10.

(23) محمد زكريا مسعود، صور ومواقف من أعلام الطريقة النقشبندية في بلاد الشام المباركة، (ج1، دار فصلت، 2009م)، ص93، 94.

(24) هو الشيخ محمد أبو النصر خلف الجندي الحمصي (1875-1949م)، وقد أخذ عن والده الشيخ محمد سليم خلف علم التوحيد والفقه والتصوف.

(25) هو الشيخ عبد الباسط بن الشيخ محمد أبو النصر (1912-1982م)، أخذ عن والده التصوف والفقه وأكمل دراسته في المدرسة الخسروفية التي تخرج منها عام 1934م.

القامشلي شرق سورية، وبعد السبعينات أقامت زاويتها في حي الحمدانية غرب حلب على يد شيخها عز الدين الخزنوي بتوظيف الملا علي الأسود.

وبعد وفاة شيخ الطريقة محمد الخزنوي (-1950 2005م) الذي كان يسكن في حلب لمدة طويلة، انقسمت الزاوية الخزنوية إلى زاويتين بسبب الخلاف على مشيخة الطريقة (أبناء الشيخ محمد الخزنوي وأخوته) عام 2005م:

الأولى: زاوية تل معروف: الشيخ عبد الله الخزنوي (من أخوة الشيخ محمد الخزنوي) الذي استمر في المدرسة (المعهد الخزنوي) والمضافة ومشيخة الطريقة.

الثانية: زاوية تل عرفان: الشيخ محمد مطاع الخزنوي (ابن الشيخ محمد الخزنوي) الذي سكن حلب، ثم أسس في قرية تل عرفان (القريبة من مدينة الحسكة) مضافة وجامعًا ومعهدًا باسم: معهد العرفان الخزنوي للعلوم الشرعية والعربية عام 2007م.

وتنفرد الخزنوية عن فروع النقشبندية الأخرى بأنها لا تسمح لغير مريديها بحضور الختم الشريف، وتقيم مجالسها في عدد من مساجد حلب: جامع المتقين، وجامع إبراهيم بن الأدهم وغيرهما.

الفرع الثالث - جماعة أحمد كفتارو في حلب: وهي تتألف من جماعتين أساسيتين، هما:

أ. جماعة مروان يكن في جامع زكي باشا في حي الإسماعيلية.

ب. جماعة الشيخ رجب ديب (1931م - 2016م) التي تنقلت بين أحياء حلب: مساجد الفيض، ومسجد أهل بدر الكرام، ومسجد عمرو بن العاص، وصولاً إلى مساجد حريتان وبيانون في ريف حلب.

مبادئ الطريقة النقشبندية

تشتغل الطريقة النقشبندية - على اختلاف فروعها - لحياسة السعادة وبلوغ الكمال مجموعة من الأمور، وهي:

أ. التوبة المستمرة في كل يوم.

ب. الالتزام بأحكام الشريعة المحمدية علمًا وعملاً وسلوكًا وأخلاقًا.

ت. الصحبة مع الصالحين وخاصة من إخوان المدرسة (النقشبندية) أو المدارس الأخرى، والتعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومذاكرة الإخوان والتناصح معهم.

ث. مشاوره شيخ الطريقة في أمور المريد الدنيوية والآخروية.

ج. باب القبول مفتوح لكل الأعمار رجالاً ونساء⁽²⁶⁾.

وتنطلق الطريقة في النقشبندية من كون التصوف جوهر الإسلام وحقيقته، ظاهرًا وباطنًا، سلوكًا واعتقادًا.

(26) انظر: محمد زكريا مسعود، صور ومواقف من أعلام الطريقة النقشبندية في بلاد الشام المباركة، ص 88.

تتجه الطريقة في تصوفها للمنهج العملي في السلوك بعيداً عن المصطلحات والرموز⁽²⁷⁾.

والسالك في هذه الطريقة يراعي علاقة ثلاثية، وهي:

أ. مع الله سبحانه: عابداً متذلاً، ومفتقراً إليه في جميع أحواله وتقلباته.

ب. مع نفسه: شارحاً في طرق التزكية والتهذيب، تحت أنظار المربي المرشد والأستاذ الكامل.

ت. مع الناس: بدءاً من أهله وعياله ووالديه وإخوانه وجيرانه وأرحامه والناس أجمعين⁽²⁸⁾.

تميز الطريقة النقشبندية بين شكلين من الذكر، وهما: الذكر الفردي والذكر الجماعي:

- الذكر الفردي: وهو الذكر القلبي الذي يتميز من الذكر اللساني المركب من الأصوات والحروف الذي لا يتيسر للذاكر في الأوقات جميعها، فإن البيع والشراء يلبي الذاكر عنه. أما الذكر القلبي الذي يتم بملاحظة مسمى ذلك اللفظ المجرد عن الحروف والأصوات، ولا شيء يلبي الذاكر عنه.

والذكر القلبي يقسم على قسمين، هما: الأول باسم الذات (هو الله)، والثاني بالنفي والإثبات (هو لا إله إلا الله).

ومن آداب هذا الذكر الطهارة، والصلاة، واستقبال القبلة، والجلوس متوركاً، والاستغفار، وقراءة الفاتحة الإخلاص، وإغماض العينين، والذي يقتضي إطباق الفم والصاق اللسان إلى السقف لتحصيل الخشوع وقطع الخواطر أثناء الذكر، ورابطة القبر التي تصور الإنسان نفسه أنه مات وغُسل وكفن ووضع في قبره وانصرف عنه الأهل والناس وبقي وحيداً فريداً، ومنها ينتقل إلى رابطة المرشد، وهي أن يتخيل قلبه مقابل قلب شيخه المرشد الكامل، وأن المدد الإلهي يفيض من قلب الشيخ إلى قلبه، وهذه الرابطة تعتمد أساساً على المحبة الصادقة بين المرشد والسالك الصادق والشيخ المرشد الكامل، ورابطة المحبة لا يخلو منها بشر، فإما أن يرتبط الإنسان بالمحبة مع أقرانه على الدنيا وشهواتها، وإما أن يرتبط مع الصالحين على الطاعة ومحبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وبعد استحضار إحدى الرابطين المذكورتين أو كليهما يقطع الذاكر نفسه المشاغل جميعها، ويتوجه بجميع إدراكه إلى الله سبحانه، ويقول: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي. ويبقى المرشد في انتظار وارد الذكر بعد الانتهاء من الذكر (5) آلاف مرة بخمسين سبحة أو أكثر أو أقل، ثم يدعو الله سبحانه بما يحفظ من دعاء لنفسه ولأشياخه وإخوانه وللمسلمين كافة⁽²⁹⁾.

- الذكر الجماعي (الختم الشريف): وهو خاتمة مجلس الذكر الجماعي الذي لا يشترط أن تكون إقامته في مركز الطريقة في حلب، بل يمكن إقامته في كل مدينة أو قرية فيها المرشدون بشرط وجود مرشد مآدون من شيخ الطريقة النقشبندية التي ترى أن كل من يقرأ الختم تقضى له الحاجات، وتحصل المرادات، وتدفع عنه البليات،

(27) السابق، ص 35.

(28) السابق، ص 72.

(29) محمد زكريا مسعود، صور ومواقف من أعلام الطريقة النقشبندية في بلاد الشام المباركة، ص 78 - 81.

وترفع له الدرجات، وتظهر له التجليات⁽³⁰⁾. وهو على ثلاثة أشكال:

أ. ختم الخواجكان أو الختم الكبير: وهو الختم المنسوب إلى الشيخ عبد الخالق الغجداوني، ويشترط في قيامه وجود عدد سبعة مریدين على الأقل، وتكون إدارته من شيخ مأذون في إدارة الختم من شيخ الطريقة، ويجتمع المریدون على شكل دائرة، ثم يوزع مدير الدائرة الحصى (100 حصوة) على المریدين بحسب عددهم، ويكون فيها الاستغفار والصلاة على النبي والفاطحة، ثم الرابطة الشريفة، وبعدها الإخلاص وصولاً إلى نهايته.

ب. ختم شاه نقشبند أو الختم الصغير: وهو الختم المنسوب إلى الشيخ محمد بهاء شاه نقشبند، وهو الختم الذي يدار عندما يكون عدد المریدين أقل من سبعة، وطريقته قريبة من ختم الخواجكان.

ت. ختم الإمام الرباني المجدد: وهو الختم المنسوب إلى الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي (1564م - 1624م)، ويكون فيه عدد المریدين أقل من سبعة.

وهناك اختلاف بسيط في مضمون الأوراد وعددها أو رابطة الشيخ وغيره، واتفق كامل في شكل الختمين السابقين وإدارتهما وغيرها.

وتقيم الطريقة النقشبندية في حلب مجالس الذكر التي يقرأ فيها الختم الشريف في كل المساجد التي وُجد فيها مریدو هذه الطريقة.

وعلى الرغم من انتساب أغلب النخبة الدينية في مدينة حلب إلى الطريقة النقشبندية، إلا أن مریديها أغلبهم من أبناء الريف الحلبي، وينتهي إليها المریدون من الطبقات الاجتماعية الغنية والفقيرة، وينتسب إليها أيضاً المتعلمون من الدرجات والاختصاصات كلها، وغير المتعلمين باختلاف المهن التي يعملون فيها.

أما علاقة الطريقة النقشبندية بالسياسة أو السلطة في سورية، فإنها اتخذت موقفاً حيادياً - كما تقول - في أحداث الثمانينيات في أثناء صراع السلطة مع حركة الإخوان المسلمين.

اتخذت الطريقة الموقف ذاته - أي الموقف المحايد - في الثورة السورية عام 2011م، وهو الموقف الذي تفسره بأن الدولة في سورية لا تقوم على أسس الكتاب والسنة النبوية، لذلك كان موقفها حياداً بين الطرفين، فهي لا تتدخل بسلطة النظام، وهو أيضاً لا يتدخل في شؤونها.

وعلى الرغم من إغلاق المساجد التي تقيم فيها الذكر، واقتصار الطريقة على مجالس الذكر في بيت شيخها في حي الفرقان، ما زال شيخ الطريقة مقيماً في حلب مع تنقله بين سورية وتركيا بين الفينة والأخرى تبعاً للأحداث هناك، فهل اتخذت الطريقة الموقف الحيادي ذاته في المناطق المحررة التي لا تخضع لسلطة النظام؟

(30) السابق، ص 81.

ب. الطريقة الشاذلية

تعود أصول هذه الطريقة إلى المتصوف المغربي الأصل أبي الحسن الشاذلي (ت. 656هـ)، وكان محمد الهاشمي (1881م - 1961م) من تبني هذه الطريقة في مدينة دمشق. وقامت الطريقة الشاذلية على تأسيس العلم العرفاني على أسس علم التوحيد أو العقيدة. وخلف الهاشمي في مشيخة الطريقة الشيخ محمد سعيد البرهاني، ثم الشيخ عبد الرحمن الشاغوري (1914م - 2004م)، الذي أخذ عن الشيخ محمد سعيد الكردي، وهي طريقة تعتمد المعارف والأذواق منهجًا صوفيًا لها.

وفي حلب مرت الشاذلية بمرحلتين أساسيتين، كلتاهما في مسجد العادلية القريب من قلعة حلب، هما:

الأولى مرحلة الشيخ عبد القادر عيسى (1920م - 1991م): تلميذ الشيخ محمد الهاشمي وقد أخذ الطريقة الشاذلية منه، وأقام زاويته في مسجد العادلية، وعاش الجزء الأخير من حياته خارج سورية نتيجة لموقفه السياسي المعارض للنظام السوري، قضاه في السعودية والأردن وأخيرًا مدة مرضه ووفاته في مدينة إسطنبول. ومن تلامذته: نديم الشهابي، ومحمد منصور، وبكري حياني. وقد انقسمت الطريقة بعد وفاة شيخها عبد القادر عيسى إلى جماعتين، هما:

1. الأولى جماعة بكري حياني التي اتخذت من جامع الكريمة في حي الجلوم مركزًا لها.
2. الثانية جماعة الشيخ أحمد الجامي المقيم في مدينة مرعش التركية، وله كتب عدة: تزييه القلوب لنظر غلام الغيوب، وسوانح قلبية بجزأين، وغيرهما.

وقد حدد الشيخ عبد القادر عيسى أصول الطريقة في كتابه الشهير «حقائق عن التصوف» تحت عنوان المنهج العملي في التصوف، فمن أخذ هذه الأصول نال الوصول، ومن حرم منها حرم الوصول، وهي ثمانية:

1. الصحبة: ويقصد بها صحبة العلماء ورثة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أطلق عليهم اسم «الوراث المحمدي»، وهؤلاء «المرشدون صحبتهم ترياق مجرب، والبعد عنهم قاتل، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم، مرافقتهم هي العلاج العملي الفعال لإصلاح النفوس، وتهذيب الأخلاق، وغرس العقيدة ورسوخ الإيمان؛ لأن هذه أمور لا تنال بقراءة الكتب ومطالعة الكراريس، إنما خصال عملية وجدانية تقتبس بالافتداء وتنال بالاستقاء القلبي والتأثير الروحي»⁽³¹⁾.

فبعد أن يحدد الشيخ عبد القادر الغاية من صحبة الوارث المحمدي بأنك «تزداد بصحبته إيمانًا وتقوى وأخلاقًا، وتشفى بملازمته وحضور مجالسه من أمراضك القلبية وعيوبك النفسية، وتتأثر شخصيتك التي هي صورة عن الشخصية المثالية، شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم»⁽³²⁾، يؤصل الشيخ عبد القادر الصحبة بأدلة قرآنية وحديثية، إضافة إلى التأصيل الفقهي (ابن الهيثمي، والشيخ إبراهيم الباجوري، وابن قيم الجوزية، وغيرهم)، والتأصيل الصوفي من استعراض أقوال المتصوفة الكبار في الصحبة، أمثال أبي حامد الغزالي، والأمير عبد القادر الجزائري، وابن عطاء الله السكندري، وغيرهم.

(31) عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، ط16، (حلب: منشورات دار العرفان، 2007)، ص43.

(32) السابق، ص44.

2. الوراثة المحمدي: بعد الإيمان بأهمية الصحبة كخطوة أولى في مراقي الكمال والوصول إلى الله، تأتي الخطوة الثانية، وهي: من نصاحب؟ وما صفاته وإشارته؟

الوراثة المحمدي هو الشيخ المرشد المأذون بالتربية الذي ترقى في مقامات الرجال الكُمَّل على يد مرشدٍ كاملٍ مسلسلاً إلى النبي وجمع بين الشريعة والحقيقة⁽³³⁾. وعلى الطالب للمراقي الكمالية أن يكون موجوعاً روحياً كما يتألم المريض في آلامه، فالطالب يبحث عن الوراثة المحمدي في كل مكان كما يبحث الموجوع عن طبيب للتخلص من آلامه، فهو يدعو الله قائلاً: اللهم دلني على من يدلني عليك، وأوصلني إلى من يوصلني.

وقد حدد الشيخ عبد القادر عيسى أربعة شروط للمرشد يجب توافرها، وهي:

- أ. أن يكون عالماً بالفرائض العينية.
 - ب. أن يكون عارفاً بالله تعالى.
 - ت. أن يكون خبيراً بطرائق تزكية النفوس ووسائل تربيتها.
 - ث. أن يكون مأذوناً بالإرشاد من شيخه⁽³⁴⁾.
3. أخذ العهد: بعد أن يجد المرشد الوراثة المحمدي عليه أن «يبايع المرشد، ويعاهده على السير معه في التخلي عن العيوب والتحلي بالصفات الحسنة، والتحقق بركن الإحسان، والترقي في مقاماته. ويؤكد الشيخ عبد القادر أخذ العهد بالأدلة القرآنية والحديث النبوي، وهو منهج متبع عند أهل الصوفية الكبار تاريخياً.
4. العلم: وهو واجب على السالك في مراقي تحصيل العلم الشرعي بأشكاله المختلفة (العقيدة والفقه والإحسان)، «ففي ابتداء سيره لا بد من علم العقائد وتصحيح العبادات واستقامة المعاملات، وفي أثناء سلوكه لا يستغني عن علم أحوال القلب وحسن الأخلاق وتزكية النفس»⁽³⁵⁾.
5. مجاهدة النفس وتزكيتها: وهي من المبادئ الثابتة في الطريق الصوفي، وتقوم المجاهدة على محاربة المعاصي المتعلقة بالجوارح السبع الظاهرة (اللسان والأذن والعينان واليدان والرجلان والبطن والفرج)، ثم مجاهدة الصفات الباطنة في النفس من مثل الكبر والرياء والغضب وغيرها. ولا يستطيع السالك أن يقوم بذلك بمفرده، بل لا بد من صحبة مرشد خبير بعيوبها، عالم بطرائق معالجتها ومجاهدتها، يستمد المرشد من صحبته خبرة عملية بأساليب تزكية نفسه، ويكتسب من روحانيته نفحات قدسية تدفع المرشد إلى تكميل نفسه وشخصيته، وترفعه فوق النقائص والمنكرات⁽³⁶⁾.
6. الذكر: يعد الذكر ركناً جوهرياً في طريق الوصول إلى الله عند أهل التصوف، وكما هي الحال في أصول الطريقة التي ذكرناها قدّم الشيخ عبد القادر عيسى أدلته من القرآن الكريم والسنة النبوية مع أقوال كبار المتصوفة في هذا الشأن، «فالطريق العملي الموصل

(33) السابق، ص 83.

(34) السابق، ص 69.

(35) السابق، ص 92.

(36) انظر: السابق، ص 101.

إلى الله تعالى وإلى رضوانه هو الإكثار من ذكر الله في جميع الحالات، وصحبة الذاكرين، لأن أنفاس الذاكرين تقطع الشهوات الأمارة بالسوء»⁽³⁷⁾.

وقد حظيت مسألة الذكر باهتمام خاص في طريق الشيخ عبد القادر، فبيّن أقسام الذكر المتعددة: ذكر السر والجهر، وذكر اللسان والقلب، والذكر المنفرد والذكر مع الجماعة، والذكر المقيد والذكر المطلق، إضافة إلى آداب كل قسم منها، وألفاظه وصيغته، وأحكامه والحركة فيه، وفوائده، التي أولها أنّ «الذكر رأس الأصول، وطريق عامة الصوفية ومنشور الولاية، فمن فُتح له فيه فقد فتح له باب الدخول على الله عز وجل»⁽³⁸⁾.

7. المذاكرة: وهي المرحلة قبل الأخيرة في الطريق الصوفي؛ فبعد الذكر تأتي المذاكرة التي تقوم على «استفادة المريد من خبرة مرشده بسؤاله عن أحكام شرعية تتعلق بتصحيح العقائد أو العبادات أو المعاملات، أو بأن يعرض له ما يحدث معه من أحوال قلبية وخواطر نفسية وشيطانية قد تلبس عليه فتوقعه في شكوك وأوهام، كالشكوك في العقائد الإيمانية، وكالتعلقات الدنيوية، التي يقف حيالها حائرًا مضطربًا... وهكذا يرجع المريد لمرشده في جميع أحوال سيره لاجتياز العقبات التي تعترضه... وقد يذاكر المرشد شيئًا في أحواله الطيبة ومقامات سيره واستشراق روحه للحضرة الإلهية، وما يرد على قلبه من واردات رحمانية أو ملكية ومفاهيم قرآنية وعلوم وهبّية والقصد من ذلك الاستيثاق من صحتها حتى يكون المريد على بصيرة من مراحل سيره»⁽³⁹⁾.

8. الخلوة: تعد الخلوة من المفهومات الرئيسة في أدبيات الطرق الصوفية، فالخلوة هي «انقطاع عن البشر فترة محدودة، وترك الأعمال الدنيوية لمدة يسيرة، كي يتفرغ القلب من هموم الحياة التي لا تنتهي، ويستريح الفكر من المشاغل اليومية التي لا تنقطع، ثم ذكر لله تعالى بقلب حاضر خاشع، وتفكر في آلائه تعالى أثناء الليل وأطراف النهار، وذلك بإرشاد شيخ عارف بالله، يُعلمه إذا جهل، ويُذكره إذا غفل، وينشطه إذا فتر، ويساعده على دفع الوسوس وهو اجس النفس»⁽⁴⁰⁾.

لا تكفي هذه الأصول وحدها للوصول المريد إلى الله، بل لا بد من أن يتبعها «المقامات القلبية المعروفة: كالتوبة والمحاسبة والخوف والرجاء والمراقبة... والصفات الخلقية كالصدق والإخلاص والصبر. التي يتحلّى بها السالك في طريقه إلى معرفة الله معرفة ذوقية، والوصول إلى مقام الإحسان الذي لا حد لمراتبه»⁽⁴¹⁾.

الزاوية الحسينية الشاذلية:

وهي المرحلة الثانية من الطريقة الشاذلية في حلب التي تأسست في باب الحديد تحت اسم الزاوية الحسينية في عام 1987-1988م، على يدي الشيخ محمود أبو الهدى الحسيني، الذي أخذ عن شيخه عبد الرحمن الشاغوري إجازة في التربية والإرشاد، ثم انتقلت الزاوية من حي باب الحديد إلى مسجد العادلية في عام

(37) السابق، ص 125.

(38) السابق، ص 180.

(39) السابق، ص 193.

(40) السابق، ص 197، 198.

(41) السابق، ص 221.

1993م بعد أن أصبح مؤسسها خطيباً لمسجد العادلية خلفاً للشيخ عبد الله عبد القادر عيسى، ساعياً إلى إعادة أمجاد مسجد العادلية أيام الشيخ عبد القادر عيسى. وأصبح الشيخ أبو الهدى الحسيني مديراً لأوقاف حلب لفترة قصيرة في عام 2010م⁽⁴²⁾، واتخذ موقفاً واضحاً ضد النظام في مرحلة الثورة السورية بعد عام 2011م.

مريدو زاوية العادلية أغلبهم - في مرحلة الشيخ أبو الهدى الحسيني - من المتعلمين والمثقفين ومن طلاب جامعة حلب وبعضهم من أساتذتها (الدكتور عيسى العاكوب مثلاً)، فشيخ الطريقة من خريجي هذه الجامعة في كلية الطب البشري، وكانت هنالك حلقات تخصصية منها حلقة الأطباء وأخرى للمهندسين وثالثة للمهنيين، وقد بلغت ذرة مجدها في عام 2003م.

مبادئ الزاوية الحسينية الشاذلية

على خطى الشاغوري سار الشيخ أبو الهدى الحسيني وأخذ عنه في بناء الطريق الصوفي على أسس علم التوحيد وبناء الطريقة على أسس علمية ثلاثية، وهي:

1. الأساس الشرعي والإيماني (علم التوحيد): والذي يتضمن أساسيات علم الفقه، وتحديدًا الفقه الشافعي، وهو مذهب شيخ الطريقة، إضافة إلى تعلم علم التوحيد، وقراءة كتب الأمهات في هذا المجال، وهي: الأربعون النووية، وحاشية الباجوري، والفروض العينية، وكتاب العقيدة الميسرة لأبي الهدى الحسيني، فضلاً عن حفظ أجزاء من القرآن الكريم، وهو أساس ضروري في المرحلة الأخيرة في الطريق (الخلوة) حتى لا يشطح المريد؛ لأنه في تلك المرحلة يغيب العقل والنفس تمامًا، ولا يبقى سوى قلبه اللاهج بذكر الله.

2. الأساس الروحي: وفيه تُقرأ الكتب الصوفية الأساسية، مثل: الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، ومعراج التشوف إلى حقائق التصوف لابن عجيبة، وكتاب اللمع للطوسي. وفي هذه المرحلة يختار شيخ الطريقة من المريدين (أو الإخوان بتعبير الطريقة الشاذلية) الصادقين في التوحيد وممن يرى فيهم الصلاح لدخول المرحلة اللاحقة.

3. مرحلة الخلوة: وهي آخر مرحلة في ترقى المريد في الطريقة الشاذلية، في مكان مخصص في مسجد العادلية للخلوة (القبة). ومدة الخلوة ثلاثة أيام بلياليها، يقدم له الخادم التمر واللبن والماء فقط، ولا يرى ولا يتكلم فيها المريد مع أحد من البشر، بمن فيهم الخادم الذي يقدم له الطعام، ويصلي فيها الفرائض، والسنن المؤكدة فقط، والمريد يلهج فقط بذكر الله بالاسم المفرد (الله)، يرددها حتى يستهلك ذاته فيها لوصوله إلى المسعى بروحه وهو الله.

ولا يدخل المريد الخلوة إلا إذا وصل إلى النفس المطمئنة⁽⁴³⁾، ثم ترقى نفسه إلى الراضية ثم المرضية

(42) له عدد من الكتب في التصوف منها: المنازل الالهية في الوصايا الشاذلية، حقائق إحصائية، المنهج التربوي في الحكم العطائية، وغيرها. الموقع الرسمي للشيخ محمود أبو الهدى الحسيني <http://abolhoda.me/www/cv.php>

(43) النفس عند المتصوفة لها سبع مراتب، وهي: النفس الأمانة بالسوء، النفس اللوامة، النفس الملهمة، النفس المطمئنة، النفس الراضية، النفس المرضية،

ثم تصبح الروح السر، ويصبح بعدها المرید عارفاً. وفي أيام الخلوة الثلاثة يدخل شيخ الطريقة محمود أبو الهدى الحسيني خمس مرات يذاكر فيه المرید ويرقيه في المراتب الروحية حتى آخرها التي يصل فيها المرید إلى الاستغراق الروحي الذي ينال المرید فيه مرتبة العارف، وهي أولى درجات المعرفة. بعد انتهاء الخلوة يعود المرید إلى الحياة بطعم جديد بعد أن عاش تجربتي الفناء في الله والبقاء فيه، وبعد ذلك يترقى إلى المراتب الصوفية المعروفة، الأبدال ثم النجباء ثم الأوتاد، وصولاً إلى القطب الغوث⁽⁴⁴⁾.

ت. الطريقة الرفاعية:

المنتسبة إلى أبي العباس أحمد الحسيني الرفاعي الملقب بالبطايعي نسبة إلى منطقة البطائح في العراق (ت. 578هـ). وتعد هذه الطريقة واحدة من أهم الطرق الصوفية التي تنتشر في سورية⁽⁴⁵⁾. وتعتمد هذه الطريقة على الذكر والأوراد الصوفية في مجالسها، ولا يحضر فيها الختم الشريف كما هي حال الطريقة النقشبندية، كما أنها تعتمد الكرامات منهجاً صوفياً لها.

والطريقة الرفاعية تنفرع إلى أربعة فروع تتوزع في مناطق مختلفة في أحياء مدينة حلب، وهي:

- أ. الفرع الأول جماعة الشيخ عبد الله سراج الدين: مؤسس المدرسة الشعبانية (ذكرناها بالتفصيل سابقاً) وسط حلب.
- ب. الفرع الثاني جماعة الشيخ محمد عجان الحديد: وهو ابن الشيخ عبدو عجان الحديد في المناطق الشعبية في شرق (حي طريق الباب وما حوله).
- ت. الفرع الثالث جماعة الشيخ خلف الشواعة أبو حمود (رفاعية قادرية): أقامت زواياها في أحياء حلب الشرقية (طريق الباب والحيدرية)، وكان معظم مریدی الطريقة من العوام، وتظهر في مجالسها الكرامات من ضرب الشيش وغيره.
- ث. الفرع الرابع جماعة الشيخ محمود الشقفة الحموي: صاحب مدرسة التكية التي وضع أسسها الإمام الرواس، وبنائها بطول القامة الشيخ أبو الهدى الصيادي، وأكمل بناءها الشيخ الشقفة. وقد بدأت هذه الجماعة في أحياء حلب الشرقية (كرم الميسر والحيدرية ومساكن هنانو)، وأسس صالح العباس المنبجي (مرید الشيخ الشقفة) في مساكن هنانو (مدرسة شرعية وجامع وتكية) باسم الإمام الرواس.

النفس الكاملة.

(44) المعلومات الواردة عن الزاوية الحسينية أغلبها كانت من تجربة صوفية عاشها السالك أحمد العلي، وهو أحد مریدی الشيخ محمود أبو الهدى الحسيني، ونقلها للباحث عبر مقابلة صوتية أجريت بتاريخ 2020/9/24م.

(45) يرى حنا بطاطو أنه من «بين الطرائق الصوفية الناشطة في سورية، أثبتت الطريقة الرفاعية على نحو خاص، أنها قوية بين الفلاحين»، ويتساءل عن سر القبول الواسع للطريقة الرفاعية في الريف السوري، ثم يجيب قائلاً: «لأن الصوفية شجعت تلك المواقف المتمثلة بالقناعة والتواضع والثقة بالله والصبر في وجه الألم والاستفزاز والمصائب. ومن الواضح أن بعض هذه القيم الصوفية تتوافق مع غريزة الفلاحين الطبيعية في حفظ الذات تحت ظروف حكم قاهر ومتقلب النزاع. حنا بطاطو. فلاحو سورية: أبناء وجهاتهم الريفيين الأقل شأنًا وسياستهم، عبد الله فضل ورائد النقشبندي (مترجمان)، (الدحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014م)، ص 206، 208.

مبادئ الطريقة الرفاعية

وهي المبادئ التي حددها الشيخ أبو الهدى الصيادي في كتابه: "الطريقة الرفاعية"، وقال في مقدمته: "هذا الكتاب المستطاب المشتمل من أحكام الطريقة العلية الرفاعية على أشرف الأصول وأحسن المبادئ، وسميته (الطريقة الرفاعية)، فإن شوهد من بعض من ينتمي لهذه الطريقة التي هي أقوم طرق أهل الحقيقة على الحقيقة ما بين ما نص عليه في هذا الكتاب من حال أو قال، فيكون ذلك المنتهي دخیلاً في الطريقة وما هو من أهلها"⁽⁴⁶⁾.

أول المبادئ هو الالتزام بالقرآن والسنة التزاماً كاملاً، مع دوام حضور القلب واستعمال اللسان بذكر الله سبحانه وتعالى بغير عدد مع ترادف الأنفاس، فإن العدد قيد⁽⁴⁷⁾.

لم يكتفِ أبو الهدى الصيادي بالأخذ بعقيدة السلف والأدب مع الخلف، والمعنى المقصود من الأخذ بعقيدة السلف ما نص عليه سيدنا الإمام السيد أحمد الرفاعي⁽⁴⁸⁾، إنما أيضاً جعل المحبة لآل الرسول وذرائه الطاهرين وأصحابه، والتوقير لجميع الأولياء والصالحين، وأن يعرف الرجل لشيخه حق التقدم على الكل من رجال الوقت⁽⁴⁹⁾، مع التأكيد على رفض أصول الطريقة للنظريات الصوفية التي لا تتطابق مع الشريعة، كالحلول ووحدانية الوجود المطلقة.

كما هي الحال لدى الطرق الأخرى، كان الذكر ركناً أساساً في الطريقة الرفاعية، لذلك يجب ذكر الله سبحانه وتعالى مع الإخوان بالجهر التام وحسن الانتظام والأدب الكامل حالة القعود والقيام وقبض البصيرة والبصر عن النظر إلى الآثار وقوفاً مع جلالة المذكور العظيم الرحمن الرحيم، والذكر منفرداً خفية بحيث لا يطلع على سر العبد السالك الذكر غير ربه أحد⁽⁵⁰⁾.

تعد فكرة المبايعات الصوفية من الأفكار التي تمايزت بها الطريقة الرفاعية عن غيرها من الطرق، إذ يقول أبو الهدى الصيادي: المبايعات في طريق الحق عملاً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمبايعات حد من حدود الحق يقف عند أهل الصدق الذين صدقوا ما بايعوا الله عليه وعاهدوا الله فخافوا سؤاله وعظموا جلاله... وما المبايعات إلا بيع النفس وقطع علائقها والأعنة... فإن انطبع المبايع على الصدق ودخل حضرة قوم تجردوا من علائق رطبهم ويايسهم⁽⁵¹⁾.

من مبادئ الطريقة الرفاعية الدعوة إلى العمل وعدم التكاثر أو التواكل؛ لأن اتخاذ حرفة للمعيشة من طريق حل، وقد عد ذلك الإمام الرفاعي رضي الله تعالى سلوفاً وأوصى أتباعه بذلك وبالغ بالوصية؛ وعليه، يكون من لم يحترف للمعيشة ويكتسبها من طريق حل، فليس بأحمدي، أي رفاعي⁽⁵²⁾.

(46) أبو الهدى الصيادي، الطريقة الرفاعية، (مصر: دار السعادة، 1325هـ)، ص.3.

(47) انظر: السابق، ص.9.

(48) انظر: السابق، ص.12.

(49) انظر: السابق، ص.14، 15.

(50) انظر: السابق، ص.32، 33.

(51) السابق، ص.38، 39.

(52) السابق، ص.54.

يحظى إمام الطريقة بمنزلة خاصة ومميزة، ويعد توقير الشيخ أحمد الرفاعي وتعظيمه ركناً أساساً في مبادئ الطريقة، فيجب إعظام شأن مؤسسها وناشر أعلامها ومحكم نظامها، سلطان الأولياء، برهان الأصفياء، وهو الغوث الأكبر والكبريت الأحمر، شيخ الدوائر، ملحق عواجز الأصاغر بأعظم الأكابر، المغيث بإذن الله، والنائب عن جده رسول الله في ملك الله، ناصر السنة، خاذل البدعة، ركن الحقيقة، عماد الطريقة، برهان الشريعة، شمس المعرفة، جليل المزايا، شريف المساعي، أبو العلمين مولانا السيد أحمد الرفاعي⁽⁵³⁾.

ث. الطريقة القادرية

تعود إلى مؤسسها المتصوف الشهير عبد القادر الكيلاني أو الجيلاني (-471 561هـ)، صاحب التصانيف الكثيرة منها: فتوح الغيب، والفتح الرباني، والغنية لطالبي طريقة الحق عز وجل، وجلاء الخاطر. وهي الطريقة التي بدأت في العراق وانتشرت في بلاد الشام ومصر وغيرها من البلاد الإسلامية.

وفي حلب بدأت الطريقة القادرية منذ زمن بعيد، ولها عدد من الزوايا المنتشرة فيها، وسنكتفي بذكر اثنتين هما:

1. الزاوية الهلالية⁽⁵⁴⁾: وهي واحدة من أهم الزوايا الصوفية في حلب، وتقع في حي الجلوم وسط المدينة، والزاوية عبارة عن مسجد صغير قديم جدد ووسع عام (1205 هـ / 1790 م)، حيث يراه أحد أفراد العائلة الهلالية القادرية، وأصبح يعرف منذئذ بـ"الزاوية الهلالية" نسبة إلى الشيخ "محمد هلال الرام حمداني" ابن الشيخ عمر المتوفى في سنة (1147 هـ / 1744 م) والمدفون في تربة الزاوية في صحن المسجد.

وكان شيخ القادرية المعروف بالشيخ الكبير إبراهيم الهلالي (ت. 1238هـ) قد درس الأزهر في مصر التي قضى فيها أكثر من عشرين سنة، وأخذ الطريقة الخلوتية في القاهرة، ودمج أفكارها في الطريقة القادرية التي تسلم مشيختها بعد عودته إلى حلب، فكان «سمته سميت علماء مصر وأشياخها، يلبس المقلّة وهي الكسوة الخلوتية، ويعتكف كل سنة مع الأخوان أربعين يوماً خلوة قادرية خلوتية»⁽⁵⁵⁾ وشهدت الزاوية الهلالية (ذات الطريقة القادرية الخلوتية) في عهده ازدهاراً كبيراً لم تعرفه سابقاً. وقد «استقطب مختلف شيوخ الهلالية عددًا من الأتباع من داخل حلب وخارجها. غادر بعضهم، بعد الانتهاء من تعلمهم في الزاوية، بإجازة (دبلوم) تخولهم بتدريس مبادئ الفرقة والاحتفال بالذكر والخلوة وفقاً لتقاليد الزاوية الهلالية ... الخلوة هي الطقس الديني الثاني. أدخله الشيخ إبراهيم الهلالي بعد عودته من القاهرة، حيث تعرف عليها هناك. حتى الحجيرات الخشبية الأربعين التي أدخلها في قاعة الصلاة كانت مستوحاة من تجربته في القاهرة، سينسحب أعضاء الطريقة لمدة أربعين يوماً إلى الزاوية، يتأملون ويصومون ويستمعون إلى الدروس التي يقدمها الشيخ»⁽⁵⁶⁾.

وعلى طابقيين، أربعون خلوة خشبية صغيرة تسمح كل منها لجلوس شخص واحد فقط، وذلك للاعتكاف

(53) السابق، ص 82.

(54) حصل الباحث من الجزء الأكبر من المعلومات المتعلقة بالزاوية الهلالية من الأستاذ محمد مسعود نجيب خياطة الذي عمل منشئاً للزاوية الهلالية لأكثر من أربعين سنة.

(55) محمد راغب الطباخ، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، محمد كمال (محققاً)، ط2، (حلب: منشورات دار القلم العربي، دت)، ص 222.

(56) https://lisa.gerda-henkel-stiftung.de/beitrag?nav_id&8691=publication1=

الأربعيني الذي يلتزم به أصحاب الطريقة القادرية الخلوتية، وكانت الخلوات الأربعينية تقام بفصل الشتاء، في هذا الفصل تقف القوافل التجارية والصناعة تكون في ركود والزراعة تنتهي في تشرين الثاني، في ذلك الوقت تقام الخلوة أربعين يوماً. وقد استمر الاعتكاف جاريًا في موعده كل عام حتى عام (1325هـ / 1907م) حيث توقف الاعتكاف، بينما استمر فيها إقامة حلقة الذكر حتى الآن والذي يتم بعد عصر كل يوم جمعة.

بالنسبة إلى الطريقة القادرية الخلوتية «الزاوية الهلالية» هي الأولى وفروعها كثيرة، كان هناك 29/ زاوية قادرية في حلب.

وأما «التكية الرفاعية» الأم فهي زاوية بيت «الكيالي»، وهي الآن أمام «المكتبة الوقفية» في مواجهة «شارع الزهراوي»، والذكر في الزاوية الهلالية بقي كما هو من دون تغيير منذ أكثر من مئة عام، ولم يعد أحد يستعمل الخلوات، وبقيت على ما هي عليه

وعن شرط قبول المريدين، فلم يكن يُقبل إلا أن يكون عالمًا عاملاً حتى يكون مريدًا للطريقة، ثم تبتدئ مرحلة تهذيب النفس «قد أفلح من زكّاه»، كان المريد يتلقى علوم عصره من رياضيات وفلك، حيث يكلف عالم لشرح دروس الرياضيات، وشرح الشعر والمنطق والمذاهب، كل العلوم كانت تُدرّس، وعندما يتخرج المريد يمكن أن يفتتح زاوية، كان من المريدين خريجو «الأزهر» وسواه من المدارس ومركز العلم، درسوا في الزاوية.

فذكر شهر رمضان الذي يقام قبل الفجر هو «ورد» السّحر للشيخ «مصطفى البكري»، عدا ذلك تقام يوميًا في المسجد الصلوات الخمس وصلاة الجمعة. وفي صلاة العصر جماعة وفصول الذكر يحدث تناغم الإنشاد مع الذكر، وللإنشاد فصول عدة، الفصول الأساسية سبعة، وكل فصل له ترتيب خاص، وهو ما يزال كما كان قديمًا تمامًا، ومدة الذكر ساعة ونصف تقريبًا، يبدأ بعد صلاة العصر ويمتد حتى صلاة المغرب، ويحضره من يشاء من المسلمين وغير المسلمين.

وتوجد فيها كل أنواع الفن الموسيقى، «الدور» و«الأنشودة» و«الموال» و«القصيد» بأشكالها الفنية الدقيقة. فقدّمًا كان الفنان «عمر البطش» في الهلالية «جنگ الجنگ»، يكون حول المنشد جناحان يلهمهما رديفان، فهناك جُنگ، وجُنگ الجُنگ، ورتديف، ورتديف الرديف كانوا يجتمعون، ويتدارسون الفصول التي يشتغلونها. ويوجد اثنان وخمسون فصلًا على عدد أسابيع السنة.

في الفصول كل شخص له ترتيب عمل من النواحي الفنية، وكان «سلمو عبد الجليل» منشد الزاوية قديمًا، بعده «صبيح الحريري» لمدة عامين، ثم «عبد اللطيف تفنكجي» استلم الزاوية، وكان من كبار أهل الفن في عصره، ثم «فؤاد خانطوماني» حوالى عامين ونصف، ثم الداعي «محمد مسعود خياطة» منذ عام 1974 حتى العام 2014م.

والإنشاد في الذكر هو العمدة في الفن الحلبي المشهور. وأكثر ما يُنشد في «حلب» من موشحات هو من ألحان المرحوم «عمر البطش» الذي كان من منشدي الذكر وترى في الزاوية.

واستلم الشيخ عبد القادر الهلالي الدرعزاني (1879م - 1966م) الطريقة بعد وفاة والده الشيخ أحمد أبو بكر (وفاة 1891م)، وفي عام 1966م تسلم مشيخة الطريقة الهلالية الدكتور جمال الدين الهلالي (طبيب بشري من إيطاليا 1935م - 2019م)، وبعد وفاته تسلمها ابنه الشيخ محيي الدين الهلالي. وأغلقت الزاوية خلال أحداث

الثورة السورية حتى العام 2015م، وفتحت أبوابها حتى الآن.

2. الزاوية الباذنجكية: وهي الزاوية التي أسسها في منطقة باب النيرب في حلب الشيخ محمد سعيد الميدانجي (1189هـ - 1250هـ) الذي أخذ الطريقة القادرية الخلوتية عن شيخ الزاوية الهلالية إبراهيم الهلالي.

ويذكر شيخ الطريقة الحالي حسن سائد الباذنجكي أن هناك فروعاً عدة للطريقة في أحياء مدينة حلب، وما تزال الزاوية الباذنجكية في منطقة باب النيرب مستمرة «بفضل الله تعالى ورسوله -صلى الله عليه وسلم- ثم بتقوى أولئك الرجال عامرة بمجالس القرآن والعلم الشريف كل يوم، وبمجالس الذكر ليلة كل جمعة وظهرها، وبالخلوات كل سنة، أربعين ليلة في الشتاء وسبعة أيام في أواخر رجب وأوائل شعبان، وبالاعتكاف في العشر الأواخر من شهر رمضان يقوم بها الصالحون المخلصون من ذرية الشيخ محيي الدين الميدانجي رضي الله عنه»⁽⁵⁷⁾.

وإلى جانب الزاوية الباذنجكية تقع المدرسة الطرنطائية⁽⁵⁸⁾ التي تحتوي على حجرات الخلوة، و"المدرسة الطرنطائية إلى الآن بفضل الله تعالى وعونه وهدى رسوله -صلى الله عليه وسلم- عامرة بهم وبإخوانهم بمجالس العلم والوعظ والإرشاد، وحلقات القرآن والأذكار والخلوات والأوراد»⁽⁵⁹⁾.

أسس الطريقة القادرية

يمكن الحديث _ بإيجاز - عن سبعة أسس للطريقة القادرية التي وضعها مؤسسها الشيخ عبد القادر الكيلاني، وهي:

1. المجاهدة: وهي أول ما يبدأ بها المرید، وهي تعني مخالفة الهوى، والبعد عن الشهوات واللذات، وإلجام النفس عنها، وشرط المجاهدة مراقبة الله في كل أحواله وأفعاله.

ومن خصال أهل المجاهدة، لا يحلفون بالله عز وجل، ويصدقون ويجتنبون الكذب، ولا يخلفون وعداً ولا يلعنون أحداً، ولا يدعون على أحد متى من ظلمه، ولا يكفرون أحداً من أهل القبلة لأي داع، ويجتنبون النظر إلى المعاصي، ويستغنون عن الخلق في مؤنته، ويقطعون طعمه في الخلق والتواضع، ومن سلك هذا الطريق أي طريق المجاهدة تولاه الله سبحانه وتعالى بالحفظ، في حفظ لسانه وقلبه برحمته. والمجاهدة لبّ الطريق وأساسه، ومن لم يسلكه فليس من الطريق شيء⁽⁶⁰⁾.

وأهل المجاهدة لهم صفات وخصال حتى يصلوا إلى المنازل الشريفة، «منها ألا يحلق العبد بالله عز وجل صادقاً

(57) حسن سائد باذنجي الحسيني، الزاوية الباذنجكية وأصولها العريقة وفروعها، (حلب: دن، 1430هـ)، ص 11.

(58) وهي المدرسة المنسوبة إلى (طرنتاي الأمير سيف الدين) وهو الذي جدد بها ووقف عليها وقفا وأما الذي أنشأها وأنشأ الجامع فهو السيد عفيف الدين بن محمد شمس الدين وذلك في سنة 785. وتقام في مسجدها الصلاة والأذكار قد اتخذها زاوية العالم العامل الشيخ معي الدين الباذنجكي وخلفاؤه من بعده وهو ينتسب إلى ولي الله الشيخ نهان الجبريني. الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، ص 275.

(59) حسن سائد باذنجي الحسيني، المدرسة الطرنطائية: موقعها، تاريخها، وصفها المعماري، أعلامها، (حلب: دن، 1430هـ)، ص 12.

(60) انظر: ميغاد شرف الدين الكيلاني، الطريقة القادرية أصولها وقواعدها كما أرساها الإمام عبد القادر الكيلاني، (بيروت: دار كتاب ناشرون، 2014م)، ص 51-53.

ولا كاذبًا، عامدًا ولا ساهيًا. وأن يجتنب الكذب هزلًا وجادًا، وأن يحذر أن يعد أحدًا شيئًا فيخلفه إياه، وأن يجتنب أن يلعن شيئًا من الخلق أو يؤذي ذرة فما فوقها، وأيضًا يجتنب أن يدعو على أحد من الخلق وإن ظلمه»⁽⁶¹⁾.

2. التوكل: تقوم حقيقة التوكل على تفويض الأمور إلى الله عزّ وجل، وهو ثلاث درجات: «التوكل، ثم التسليم، ثم التفويض فالتوكل يسكن إلى وعد ربه، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه»⁽⁶²⁾.

أ. التوكل: لمن يسكن إلى وعد ربه.

ب. التسليم: وهو لمن يكتفي بعلمه.

ت. التفويض: لمن رضي بحكم ربه⁽⁶³⁾.

3. حُسن الخلق: وهو «الخلق لمن تحقق بأسماء الله الحُسنى ثم تخلق بها، وكل تخلق من دون تحقق تمزق، كما ترتبط الأخلاق بالمعرفة وهي أعلى الهرم الأخلاقي التي يتولد عنها حسن الخلق، وعن الخلق يظهر السلوك، ثم يأتي مستوى الفناء، وهو فناء الصفات المذمومة بصفات محمودة، ويعني ذلك محو الصفات المذمومة شرعًا لتحل بدلها صفات محمودة شرعًا»⁽⁶⁴⁾.

4. الشكر: «وهو مرافق للإحسان، وأنه متبادل بين الله سبحانه وتعالى بجلاله وبين العبد الفقير إليه، فشكر العبد لله تعالى بالإضافة إلى لفظ اللسان وإقرار القلب، طاعة وعبادة وحفظ للجوارح، ولا طاعة ولا عبادة إلا بمنهج الشرع ومحدداته، فوصل بنا الشكر من النطق بالكلمات إلى تحقيق الشرع الحنيف، بينما شكر الحق للعبد بأن يجعل العبد يثني على ربه ويذكر نعمه عليه فيحصل بالنتيجة على الهداية بأن يكون عبدًا شكورًا»⁽⁶⁵⁾.

5. الصبر: وهو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب، وهو على ثلاثة ضروب:

أ. صبر لله عز وجل وهو على أداء أمره وانتهاء مهيبه.

ب. وصبر مع الله عز وجل، وهو الصبر تحت جريان قضائه وأفعاله فيك من سائر الشدائد والبلايا.

ت. وصبر على الله، وهو الصبر على ما وعد من الرزق والفرج والكفاية والنصر والثواب في دار الآخرة⁽⁶⁶⁾.

(61) عبد القادر الكيلاني، الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل (في الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية)، أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة (واضع الحواشي)، ج2، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1997)، ص314.

(62) السابق، ص317.

(63) انظر: ميعاد شرف الدين الكيلاني، الطريقة القادرية أصولها وقواعدها، ص53-54.

(64) السابق، ص55.

(65) السابق، ص54.

(66) - السابق، ص43-44.

6. الرضا: «إن بداية الرضا مكتسبة للعبد وهي من المقامات، ونهايته من جملة الأحوال وهي ليست بمكتسبة»⁽⁶⁷⁾، فكل من رضى بالقضاء استراح، والرضا يقسم إلى ثلاثة أقسام:
- أ. الرضا عن الله تعالى.
- ب. والرضا بأحكام الله تعالى.
- ت. الرضا بالله تعالى⁽⁶⁸⁾.
7. الصدق: «وللصدق مستويات مختلفة، صدق اللسان ومعياره المحاسبة علة كل قول، وصدق الأعمال ببذل المجهود والاجتهاد في كمالها، وصدق العزم أن يجعل إرادته خالصة لله. فالصدق له ظاهر في اللسان والأقوال، والأعمال والعبادات، وله باطن في القلب من خلال صفاء النية، وجمع العزم والإرادة لله وحده وبذا يتكامل الصدق بين الظاهر والباطن»⁽⁶⁹⁾.
- كما تحدد الطريقة مجموعة من الآداب التي يجب أن يتأدب بها المرید في سلوكه ومنها⁽⁷⁰⁾:
- أ. لا يخالط المقصرين والبطالين، من أعداء الأعمال التكليف.
- ب. أن يرضى بالذل الدائم والحرمان من النصيب.
- ت. التحبب إلى المشايخ والأولياء والأبدال.
- ث. أن يتأدب مع شيخه بترك مخالفته في الظاهر وترك الاعتراض عليه في الباطن، وعليه أن لا ينقطع عن شيخه في كل الأحوال، وأن يعتقد أن المشايخ هم الطريق إلى الله، والأدلاء عليه، ويقوم على خدمتهم.
- ج. ألا يستعجل الأحوال ويدعي المقامات.
- ح. أن يكون صمته أكثر من كلامه، ويجعل صمته هذا، صمت عبادة وتفكير وأدب.
- وتشكل الخلوة الظاهرة والباطنة ركناً أساسياً في الطريقة القادرية، ويشترط فيه «الصمت وملازمة الذكر بالإرادة والمحبة والإخلاص، والدخول بالتوبة والتلقين، أي تلقي التلقين من شيخ ملقن، وبإشراف شيخ تقي نقي عالم سالك»⁽⁷¹⁾.
- ويشكل الذكر العمود الفقري للطريقة القادرية وله نوعان أساسيان يمتدان على أيام الأسبوع كلها، وفي أوقات النهار والليل:

1. الذكر الفردي: ويبدأ من ذكر اللسان وذكر النفس وذكر القلب، وذكر الروح، وذكر السر،

(67) عبد القادر الكيلاني، الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل، ص 330.

(68) ميعاد شرف الدين الكيلاني، الطريقة القادرية أصولها وقواعدها، ص 43.

(69) السابق، ص 58.

(70) السابق، ص 64.

(71) السابق، ص 69.

وذكر الخفي، أخفى الخفي. فإن السالك يستطيع التحكم بثلاثة أنواع، تبدأ من ذكر اللسان ثم ذكر النفس وذكر القلب، والأخيران هما من الذكر السري، بينما ذكر اللسان جهري، وما تبقى من الذكر فطرفه ليس بيد السالك، لأن ذكر الروح هو مشاهدة أنوار ما تتجلى به الصفات، وذكر السر هو الآخر مكاشفات من عالم الأسرار، وفي الذكر الخفي تتعاقب أنوار جمال الأحدية، أما أخفى الخفي فهو لأهل الحقائق يسبح فيه ببحر الحقيقة.

2. الذكر الجماعي: وهي حلقات ذكر صغيرة أو كبيرة، يقودها شيخ متمرس صاحب حال، لأن للحال في هذا الموضوع أهمية، ليفيض منه على الحاضرين ويحسه الآخرون، ثم يبدأ الذكر، ودائمًا ما يكون جهريًا، ويبدأ بتلاوة القرآن الكريم والإكثار من قول لا إله إلا الله. ويتخلل الذكر أبواب في الثناء على الله، والمدائح النبوية جلوسًا ووقوفًا... وفي الذكر القادري يمنع ضرب الدرباشة أو إدخال الحراب والسيوف في الجسد وغيرها، إضافة إلى جواز استخدام الألحان في الصوت البشري مثل المقامات العراقية في التلاوة وغيرها فهي من أبواب التجويد والتحسين في القراءة، وجوز تقديم أصحاب الأصوات الجميلة والشجية في هذه الحلقات للتأثير على قلوب السامعين⁽⁷²⁾.

نختم حديثنا عن الطرق الصوفية في مدينة حلب بالإشارة إلى التصوف النسوي الذي لم يحضر كجماعة خاصة منفصلة (كالقبيسيات في دمشق مثلًا)، بل كان لكل طريقة جناحها النسوي، فكان الشيخ محمد النهان يخصص دروسًا للنساء، والشيخ عبد القادر عيسى والشيخ نديم الشهابي حيث يخصص مكانًا للنساء في جامع الفتح في منطقة المحافظة حتى يحضرن حصّة الذكر، وما زالت الزوايا والطرق حتى الآن تخصص مكانًا منفصلاً لحضور النسوة الدروس الدينية والحلقات الصوفية.

3. العلماء الرسميون

وهم نخبة أكاديمية، حاصلة على درجة الدكتوراه، كانت على اتصال بالسلطة في سورية (من خلال تقلدها للمناصب الرسمية في مديرية الأوقاف أو دار الإفتاء بعد أحداث الثمانينيات). كانوا - وما يزالون - موالين لسلطة الاستبداد وأداة من أدواتها، ومعارضين لثورة 2011م. وكان هذا التيار يعمل تحت اسم مدرس محافظة: وهي صفة تمنح لعدد محدود من العلماء ممن كان لهم منزلة علمية ودينية متميزة، إضافة إلى حضورهم في الوسط الاجتماعي، وهي صفة تمنحها مديرة الأوقاف في كل مدينة، ويقدم المدرس الواعظ بموجها الدروس الدينية الإضافية الدورية أو المتقطعة في المساجد التي تحددها مديرة الأوقاف، وعادة تكون في المساجد ذات الأهمية الكبيرة، ومنها: الجامع الأموي الكبير، وجامع الروضة، وجامع عبد الله بن عباس، وجامع التوحيد، وجامع الإيمان، وجامع العادلية، وغيرها كثير في مدينة حلب. ومنهم:

1 - صهيب الشامي: كان والده محمد الشامي من أتباع الطريقة النقشبندية في حلب ممثلة في الشيخ النهان، وكان يده اليمنى، «يستفيد بمهارة من علاقاته بالسلطات

(72) السابق، ص 96-97.

السياسية والأمنية لمساعدة الجماعة... فقد أوصله قربه من النظام إلى هلاكه، حيث اغتالته الطليعة المقاتلة في عام 1980م⁽⁷³⁾. ذهب صهيب الشامي إلى فرنسا للحصول على درجة الدكتوراه في الفكر الإسلامي على يدي المفكر محمد أركون، وبعد مقتل والده بسنتين أصبح مديرًا لأوقاف حلب لمدة 25 سنة، كان خلالها رمزًا لإحدى أفضل استراتيجيات الدولة للسيطرة على رجال الدين: الفساد⁽⁷⁴⁾. وكانت دروسه في مسجد عبد الله بن عباس في الطرف الغربي من حلب، وكان خطابه ذا بنية صوفية واضحة، محاولاً تأسيس جماعته الصوفية الخاصة من المريدين المستفيدين الملتفين حوله.

2- محمود العكام: أكاديمي حاصل على الدكتوراه في الفكر الإسلامي من فرنسا على يدي المفكر محمد أركون، وله مناصب رسمية عدة، منها: مفتي حلب، وكان إمامًا لجامع التوحيد في وسط حلب لمدة 26 سنة⁽⁷⁵⁾. ومن كتبه: المصالحة طريق إلى الأمان، قيمة العبودية عند سيد البرية محمد صلى الله عليه وسلم، وطن ومواطن ومسؤولية، التطرف والاعتدال وقضايا مقارنة، الإسلام والإنسان، وغيرها.

يحدد العكام موقفه الرافض من التصوف السائد الذي «أسمى خرقة على جسد بعد أن كان خرقة القلب، وغدا اكتسابًا بعد أن كان احتسابًا، وها هو يُرى جريًا وراء الطعام والشراب بعد أن كان قفًا واتباعًا للآل والأصحاب»⁽⁷⁶⁾. لكن العكام في تصوفه المنشود يكرر التصورات التقليدية المعروفة نفسها حول التصوف بأن «راحة الأجسام في قلة الطعام، وراحة النفس في قلة الآثام، وراحة القلب في قلة الاغتمام؛ الاغتمام اللافت عن التفكير والتفكر، وراحة اللسان في قلة الكلام أو أنه تخلق بأخلاق حسنة؛ تبتدئ بالإخلاص، وتتم بكف الأذى وكسب الحلال، وتؤول إلى احتمال الأذى والمواجهة بالإنصاف والحلم والكرم»⁽⁷⁷⁾.

3 - أحمد حسون: كان والده محمد أديب حسون⁽⁷⁸⁾ إمامًا في مسجد أسامة بن زيد في حي ميسلون الحلي، وهو من أسرة حلبية ريفية، أما أحمد بدر الدين حسون⁽⁷⁹⁾ فهو أكاديمي حاصل على درجة الدكتوراه من الأزهر، دخل البرلمان عام 1994، تقلد مناصب رسمية، منها مفتي حلب، ثم أصبح مفتيًا لسورية عام 2005م.

(73) توماس بيريه، الدين والدولة في سوريا، حازم نهار (مترجمًا)، (إسطنبول: مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر، 2020م)، ص 117، 118.

(74) السابق، ص 118.

(75) موقع الدكتور محمود العكام: <http://org.akkam.org/topics/3105>

(76) محمود العكام، التصوف (التراث الصوفي) من العرض إلى النقد، ص 21. الموقع الرسمي للدكتور محمود العكام <http://www.akkam.org/topics/3105>

(77) السابق ص 21.

(78) وقد أخذ الشيخ محمد أديب حسون (1913 - 2008م) الطريق الصوفي من الشيخ أبي النصر الحمصي طيب الله ثراه، وبعد وفاته التحق بالمريد الأول عنده الشيخ محمد النبهان ولازمه حتى وفاته، وقد درس في المدرسة الشعبانية وفي المدرسة الخسروية مواد الفقه والحديث والتفسير والأخلاق، وكذلك درس في المدرسة الكتاوية، وكان مديرًا فيها، وبقي يدرس فيها حتى وفاة الشيخ محمد النبهان. https://islamsyria.com/site/show_cvs/108

(79) يقول أحمد حسون عن شيخه محمد النبهان: وضعني في حجره وعمري ثلاثة أيام، وأسعني أول أذان، هكذا قال لي والدي، وهو الذي لقبني ببدر الدين وسماني به أحمد بدر الدين حسون، وعرفني طريق الحب إلى الله ورسوله، وعشت معه أكثر من عشر سنوات في المسجد. <https://www.youtube.com/watch?v=mVIAIGP5kwU>

اتخذ مسجد الروضة في الأحياء الغربية الغنية منبرًا لخطابه الصوفي، إضافة إلى مضافة الفرقان التي أقامت جانب بيته مكانًا للمريدين والمحبين كنوع من تأسيس الجماعة الصوفية حوله.

لا يعتمد حسون في خطابه على النص المكتوب، وهو لم يكتب إلا القليل من الكتب، وهي: كتاب الموسوعة في آداب الفتوى، وتحقيب كتاب الأم للشافعي؛ بل إن حضوره اللافت يعود إلى خطابه الشفوي من خلال الخطب واللقاءات والدروس والمداخلات وغيرها. وتقوم فلسفته الصوفية (الشفهية) على مبدأ قداسة الله وكرامة الإنسان التي بنى من خلالها مقولته الشهيرة: أنا مسلم في عقيدتي، عربي في مصحفي، عالمي في إنسانيتي، سني في اقتدائي، شيعي في ولائي، سلفي في جذوري، صوفي في حبي ونقائي⁽⁸⁰⁾.

على الرغم من القيمة الأخلاقية والإنسانية العليا للمقولات التي يبني عليها حسون خطابه الديني (الإنسان بنيان الله، ملعونٌ من يهدم بنيان الله)، إلا أنه وقف إلى جانب النظام الأسدي، وكان أدواته الدينية التي شرعت كل أفعاله الإجرامية ضد الشعب السوري.

أخيرًا، لقد كان التنافس على أشده بين أصحاب التيار الصوفي الرسمي الموالي للسلطة، وكذلك التسابق لخدمة السلطة، سياسيًا ودينيًا، والحادثة الآتية توضح جزءًا من التنافس:

يروى أحد الحضور في جنازة مقرئ حلب الشيخ محمد صالح الطحان، الملقب بالشيخ (كلال)، في جامع المتقين في حي مساكن هنانو في شرقي حلب، وقدم ابن الشيخ كلال الشيخ كعيد (المفتش الديني في مديرية أوقاف في حلب) ليكون إمامًا لصلاة الجنازة، فدخل الشيخ أحمد بدر الدين حسون (مفتي حلب آنذاك) مع أشخاص عدة متأخرًا، وشق الصفوف مسرعًا ليصل إلى المحراب ليزيح الشيخ تيسير كعيد عن إمامة الصلاة الجنازة، قائلاً له: أنت موظف صغير لا يجوز لك أن تقف إمامًا بوجود مفتي البلد. وبعد دفعه بحركة قوية إلى الخلف سقطت العمامة على الأرض من رأس كعيد، وبدأ أحمد حسون الصلاة مسرعًا بالله أكبر، وتراجع كعيد إلى الورااء مقتديًا بأحمد حسون وسط دهشة الحضور وصراخهم: يكفي يا مشايخ، لا يجوز هذا في المسجد⁽⁸¹⁾!

ثانيًا: آثار التصوف في الحياة الثقافية لمدينة حلب

تركت عراقية التصوف في حلب وامتداده الحضاري، إضافة إلى الحضور القوي للطرق والزوايا والتكايا الصوفية وانتشارها، أثرها الكبير والواضح في حياة الحلبيين ونشاطهم الثقافي المتعدد، وقد صنعت بمجملها هوية ثقافية صوفية لمدينة حلب قلّ نظيرها في التاريخ المعاصر، تمثل ذلك في:

1. الإنشاد الصوفي

لئن كانت حلب عريقة في صوفيته نتيجة لقدم انتشار الزوايا والطريق والخوانق والربط الصوفية فيها،

(80) <https://www.youtube.com/watch?v=y9BORGIII0>

(81) مقابلة مع راوي الحادثة، وفضل عدم ذكر اسمه.

فإنه من الطبيعي أن تكون حلب حاضرة الإنشاد الصوفي الذي أبدع فنوناً مختلفة، مثل الموشحات والقُدود الصوفية؛ لأن مدرسة حلب جاءت تطوراً للغناء العربي المشرقي عبر الدولة العربية، وساهم في إرسائها فيما بعد سيادة الطرق الصوفية في العهدين المملوكي والعثماني⁽⁸²⁾.

أما في القرن العشرين، فإن الباحث أمير ناشر النعم يقول: «كان لكل شيخ من مشايخ حلب الصوفيين مملكة خاصة به، وكان له أتباع ورعية يمتازون عن رعايا الممالك الأرضية بأنهم يذوبون عشقاً ومحبة للشيخ، ملك قلوبهم.

وفي تقديري أن الفضل الأكبر والأعظم في بناء هذه الممالك كان يعود للمنشدین، فهم الذين كانوا يضحون محبة الشيخ في قلوب الرعية (التلاميذ والأتباع) من خلال آهاتهم ونغماتهم وأبياتهم التي يتفننون في أدائها وترجيحها وترديدها، وكان لكل شيخ منشد محب هائم يختص به ولا يغادره ولا ينتقل إلى سواه، وكان مغناطيس هؤلاء المنشدین لا يقل قوة وتأثيراً عن مغناطيس الشيخ نفسه في جذب المريدين للحضرة وللمداومة عليها.

كان منشد الشيخ محمد النهان: محيي الدين أحمد.

ومنشد الشيخ عبد الله سلطان: أبو صلاح صلاحو.

ومنشد الشيخ عبد القادر عيسى: ياسين العلاف.

ومنشد الزاوية الهلالية: عبد اللطيف تفنجكي (القضماتي) لمدة 25 سنة، ومحمد مسعود نجيب خياطة لمدة 40 سنة.

ومنشد الشيخ عبد الباسط أبو النصر ومن بعده ابنه الشيخ إسماعيل: أبو اصطيف الصباغ، وحج نصحي إسكيف، والشيخ أحمد إبراهيم⁽⁸³⁾.

ومنشد الزاوية الباذنجكية: عبد القادر رديف.

وقد تطورت الأناشيد الصوفية - خاصة بعد خروجها من الزوايا الصوفية إلى الحياة الفنية في مدينة حلب - إلى الإنشاد الصوفي؛ تيار له تاريخه وتقنياته الغنائية الخاصة، إضافة إلى تنوع موضوعاته الإنشادية بين مدائح الأولياء، ومدائح نبوية وصحابية، ومدائح المولوية، التي أضحت لاحقاً أيقونات في فن الإنشاد الصوفي، منها: فاصل اسقى العطاش، والنوبات الأندلسية، وغيرها.

ومن أهم رجالات هذا التيار، وهم كثر: صالح الجذبة (-1858 1922م)، وعمر البطش⁽⁸⁴⁾ (1885 - 1950م) الذي أبدع كثيراً من الألحان، ومحمد النصار (1904 - 1967م)، وأحمد الفقش (1900 - 1969م)، وأسعد سالم (1909 - 1969م)، ومصطفى الطراب (1907 - 1979م)، وبكري كردي (1909 - 1978م)، وعبد القادر حجار

(82) عبد الفتاح رواس القلعة جي. التواشيح والأغاني الدينية في حلب، (الكويت: مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2006م)، ص 17.

(83) انظر: صفحة محمد أمير ناشر النعم: https://m.facebook.com/story.php?story_fbid=1879071832309434&id=100006199051746

(84) يعد من أهم المشتغلين في هذا الباب، وقد نشأ في مدينة حلب، وترعرع في زواياها الصوفية على الأذكار والأوراد. وبدأ البطش تلقي علوم الأنغام والأوزان والموشحات على يد خاله الحاج بكري القصير الذي كان يصحبه معه إلى الأذكار والموائد، كما تعلم البطش على يدي صاحب كتاب «سفينة الحقيقة في علم السماع والموسيقا».

وأبدع البطش الكثير من الألحان التي أخذها كبار فناني حلب في الإنشاد الصوفي والغنائي، كما درّس في معهد الموسيقى الشرقي بدمشق.

(1917 - 1993م)، وصبري مدلل (1918 - 2006م)، وأديب الداخ (1938 - 2001م)، وحسن حفار (1943 - 2020م)، وعبد الرؤوف حلاق، وياسين العلاف، وعمر دربي، وأمين الترمذي، وعلي الدرويش، وفؤاد خانطوماني.

وقد تابع مسيرة الإنشاد الصوفي في مدينة حلب عدد من المنشدين المعاصرين الذين أضافوا الكثير للإنشاد الصوفي، ليس في طريقة تناول التراث الشعري الصوفي وحسب، إنما أيضاً في الأدوات الإنشادية الجديدة لتواكب التطورات المعاصرة، ومنها الناي، الإيقاعات، المزهرة الكبير، إيقاع البنكرز، النقرزان، رق الصنج، الدوالة، طبل الباز، كاتم، الطبل الكبير، والخليلية. ويمثل هذا التيار: أحمد شكري⁽⁸⁵⁾، وأحمد حبوش، وعبد القادر معصراني، ومحمود فارس، وعبد الناصر حلاق، وسامر نشار، وفرقة التراث الحلبية بقيادة مسعود خياطة، وغيرهم كثير.

لم يكن تيار الفن الغنائي الطربي بعيداً من تأثير الحركة الصوفية في حلب، بل نشأ في أحضان الزوايا الصوفية، فغنى جزء من رجال هذا التيار الموشحات والقذود الحلبية ذاتها، والتراث الصوفي الشعري، لكن بقالب غنائي ترافقه الآلات الموسيقية العصرية، لخلق أساليب وتنقلات إيقاعية وغنائية جديدة، ومنهم: أديب الداخ، وصباح فخري، ومحمد خير، ومحمد النصار، وعمر سرميني، ومصطفى ماهر، ووليد طراب، وعبد الرحمن عطية، وسمير جركس، ونهاد نجار. وخيري حمام، ومصطفى سرميني، وصفوان العابد.

تجب الإشارة إلى العلاقة المتداخلة والمتشعبة وصعوبة التمييز بين الإنشاد الصوفي والفن الغنائي الطربي في مدينة حلب، ليس في الألحان والشعر والإداء والموضوعات المشتركة وحسب، بل حتى في القالب الغنائي الموحد بينهما؛ فالأمر في مدينة حلب ليس تشابهاً بين نمطين فنيين، إنما أبعد من ذلك، إنه مسحة روحية واحدة تجمع بينهما.

2. الرقص الصوفي

يعد التنقل الحركي (الاسم الحقيقي للرقص الصوفي) المصاحب للأذكار من أدبيات الفكر الصوفي تاريخياً، فقد وضعت حلب بصمتها الخاصة في هذا الباب، «فالرقص الديني في حلب مرتبط بالأذكار وأداء الموشحات، خصوصاً الموشحات التي تُدرج في فصل «اسقِ العطاش». وهو نوعان:

أ. الرقص الخاضع للتصميم والأوزان والشكل الفني المنضبط، كفتلة المولوية ورقص السماح.

ب. الرقص الحر الذي لا يحكمه تصميم ولا وزن، وهو السائد في الأذكار، وفيه يتحرك الجسم حركات إلى الأمام والخلف، واليمين واليسار، تتفاوت ما بين الرزانة والصخب والهيجان، خاصة إذا كانت مترافقة مع ضربات الطبل والدفوف والصنوج، وذلك خلال ترديد لفظ الجلالة (الله الله الله) حتى يُغنى على بعض الذاكرين من الاستغراق في الحالة، وهنا يتدخل الشيخ لإيقاظهم⁽⁸⁶⁾.

(85) يقول الفنان أحمد شكري في مقابلة معه أنه أخذ من صبري مدلل لحن الإنشاد الديني، ومن أديب الداخ القصيدة الغزلية، والموشحات من عبد القادر حجار، ومن عبد القادر رديف الراجح خط سير المدائح الصوفية والأذكار، فضلاً عن مديح الأولياء والصالحين.

(86) عبد الفتاح روااس القلعة جي، التواشيع والأغاني الدينية في حلب، ص 64.

ومن الإضافات النوعية التي أغنت فيها حلب التجربة الصوفية في مجال الرقص الصوفي تنقل السماح، وهو المفهوم الذي يرتبط بجذره اللغوي، أي طلب الإذن ببدء التنقل الحركي من شيخ الطريقة. فالسماح «رقص ديني جماعي يؤدي في تشكيلات ونغمات وإيقاعات وخطوات متعددة على شكل وصلات تُغنى فيها الموشحات والقُدود»⁽⁸⁷⁾. ويتفق معظم المهتمين بهذا الموضوع على أن رقص السماح أبدعته شخصية صوفية حلبية لها منزلتها في تاريخ التصوف، وهو الشيخ عقيل المنبجي، الذي «كان أول من رتب رقص السماح، وكان من العلماء المتصوفين، وكان يقيم في داره الأذكار، وله تلامذة ومريدون، فكان يعلمهم الأناشيد والتواشيح على الإيقاع»⁽⁸⁸⁾، «كما قام الشيخ عقيل بتحويل نغمات الموشحات والأناشيد التي كانت تُغنى في الزوايا الصوفية إلى حركات متلاحقة تتم تأديتها بالأرجل»⁽⁸⁹⁾.

في القرن العشرين لم يكتفِ عمر البطش - الذي أخذ السماح عن شيخه: أحمد عقيل وصالح الجذبة - «بنقل السماح من الزوايا والتكايا، ومن حلتها الدينية، إلى الفرق الفنية الحديثة فحسب، إنما أضاف حركات وتشكيلات نوعية جمالية تواكب التطورات الحالية الفنية المعاصرة، خصوصاً في توافق الرقصات في إيقاعها الجسدي الحركي مع الإيقاع الشعري والموسيقي للإنشاد والغناء، ففي التكايا والزوايا كان المريدون في الطريقة الصوفية يرقصون على إيقاعات القُدود والموشحات الدينية والصوفية الموروثة عن النابلسي والكيلاني وغيرهم من الأقطاب، ولباسهم هو اللباس الشعبي، أما الفرق الفنية الحديثة منذ عهد الاستقلال فترقصه على إيقاعات الموشحات الغزلية والخمرية... ولباسهم يخضع للتصميم والتفصيل واختيار الألوان الزاهية والأقمشة الناعمة الرقيقة تمد المتفرج بمتعة جمالية، قد تحمل مناخات أندلسية أو مناخات معاصرة»⁽⁹⁰⁾.

وقد برز في مدينة حلب مجموعة من أعلام هذا الفن، ومنهم:

- أ. صالح الجذبة (-1858 1922م): مدرب فرقة أبي خليل القباني على الموشحات ورقص السماح ومؤلف كتاب: سفينة الحقيقة في علم السماح والموسيقا.
- ب. الشيخ محمد جنيد (1874 - 1933م): أخذ عن الحاج أحمد الشعار الموشحات ورقص السماح.
- ت. مصطفى الخشّان (1885م): تلقى السماح والموشحات وأوزانها على أيدي محمد النيال ومصطفى المعظم والشيخ كامل الهراوي.
- ث. عمر البطش: «ملحن الموشحات الأشهر في حلب، وهو من منشدي الزاوية الهلالية، وكان في داره ما يشبه صف الدراسة، إذ كان تلامذته كثيرًا ينقسمون إلى مجموعات»⁽⁹¹⁾، وهو صاحب الإضافة النوعية في رقص السماح، الذي عمل على نقله إلى دمشق عندما كان مدرسًا للموشحات في معهد الموسيقى الشرقية، ومدرّبًا له في مدرسة دوحه الأدب للفتيات في دمشق عام 1947م.

(87) السابق، ص 64.

(88) السابق، ص 66.

(89) حسان عباس، الموسيقى التقليدية في سوريا، (بيروت: منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة اليونسكو، 2018م، ص 215).

(90) انظر: عبد الفتاح رواس القلعة جي، التواشيح والأغاني الدينية في حلب، ص 67.

(91) محمد قدرى دلال، القُدود الدينية: بحث تاريخي وموسيقي في القُدود الحلبية، ص 20.

ج. عبد الوهاب السيفي (1889 -): تولى تدريس الموشحات ورقص السماح في معهد الموسيقى الشرقية لدمشق بعد وفاة عمر البطش، وترك لنا «مخطوطة السفينة المختصرة، نظم العقود»، أخذ محتوياتها عن سفينة الحقيقة للشيخ صالح الجذبة وجمع فيها حوالي 400 موشح مما تنشده الطريقة القادرية، وحوالي خمسين وزناً من فصول رقص السماح لعمر البطش⁽⁹²⁾.

ح. حسن بصال (1926م): أخذ الموشحات ورقص السماح عن عمر البطش، وامتاز بمحفوظاته الغزيرة من التراث الغنائي الديني والموشحات (وما يقترن بها من السماح)، وهو الذي علم أجيالاً من الناشئة رقص السماح.

3. الشعر الصوفي

شكل الإنشاد الصوفي جزءاً جوهرياً من التجربة الصوفية في زوايا حلب وتكايها، إذ اعتمد منشدو الزوايا الكلاسيكية فيها على التراث الشعري للمتصوفة الكبار، خاصة في الموشحات، مثل: السهروردي، وجلال الدين الرومي، والقاسم الوسطي (589هـ)، وشهاب الدين أحمد بن محمد المعروف بحميد الضرير (791هـ)، وعماد الدين النسيبي (820هـ)، وابن الحنبلي (971هـ)، وابن الدباغ الميقاتي (1174هـ)، ومحمد أبو الوفا الرفاعي وابنه محمد بهاء الدين الرفاعي (1290هـ). وفي القدود كان الشيخ أبو بكر الهلالي (1183هـ)، والمتصوف عمر اليافي (1817هـ)، والشاعر أمين الجندي (1257هـ)، وعمر بن الفارض، ومحيي بن عربي، وكان أهمهم عبد الغني النابلسي (-1641 1730م)، وعيسى البيانوني (1943 ت)، وأبو الهدى الصيادي (1909هـ)⁽⁹³⁾، والرؤاس.

أما في القرن العشرين، ومع تطور أدوات حركة الإنشاد الصوفي في مدينة حلب لحنًا وأداءً ودخول الأدوات الايقاعية وغيرها، إضافة إلى خروج الإنشاد من الزوايا إلى الحياة العامة، فقد برز في حلب شعراء صوفيون عاشوا في الزوايا أو تأثروا بالحالة الصوفية التي تهيمن على الوسط الحلبي، فعبروا عن تجربتهم شعراً، فكانت نصوصهم مادة للمنشدین الحلبيين، ومنهم:

عيسى البيانوني (1873 - 1943م): من قرية بيانون المحاذية لمدينة حلب، درس في المدرسة العثمانية، فهو عالم متصوف تبنى الطريقة النقشبندية والرفاعية، وعمل مدرساً لمادة الأخلاق في المدرسة الخسروفية، هي المادة الوحيدة المتعلقة بالتصوف، وهو شاعر صوفي له كثير من الكتب، منها: أكواب الرحيق في آداب الطريق، وفتح المجيب في مدح الحبيب، وغاية المطلوب في ورؤيا المحب للمحبوب، وفي المحبة النبوية⁽⁹⁴⁾. ومن أشعاره:

والعُمُرُ إلا في المحبة ضائعُ

الحبُّ أشرفُ ما حوته أضالعُ

(92) عبد الفتاح رؤاس القلعة جي، التواشيع والأغاني الدينية في حلب، ص 188.

(93) أبو الهدى الصيادي: هو محمد بن حسن وادي بن علي الصيادي الرفاعي الحسيني، أشهر علماء الدين في عصره، كان شيعياً للسلطان العثماني عبد الحميد الثاني، وله العديد من الكتب: قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر، فرحة الأحباب في أخبار الأربعة الأقطاب، وغيرها الكثير.

(94) موقع جواهر حلب: <https://beyanouni.com/isa>

لا يشغلنك شاغلٌ عن حبِّ من
بدرُ السماء له عُبيدٌ طائعٌ
يمّم حى أعتابه بتدلّلٍ
والثمّ ثراهُ وأنتِ باكٍ خاشعٌ
وحياتِه أنا مغرّمٌ في حبه
وبفضله في كلِّ آنٍ طامعٌ
لولا رجائي أن أفوزَ بقربه
لأبادني سهمُ البعادِ الصادعُ
نورٌ من النور القديم قد انجلى
فرُدُّ لأشتات المعالي جامعٌ

بكري رجب الحلبي (-1910 1980م): خريج المدرسة الخسروية، وعمل مدرساً في المدارس الشرعية في حلب، وهو شاعر صوفي له مؤلفات عديدة، منها: المدائح النبوية والأشعر الحكمية، وهداية المرید إلى جوهرة التوحيد، والرسالة الشافية في الشعر والعروض والقافية، والمثل العليا في الحب للجناب المحمدي، وغيرها⁽⁹⁵⁾. ومن أشعاره:

راق كأس الصبا يا نفس طيبي
واهنئي هذي ديار الحبيب
هذه الدار دار خير البرايا
سيد المرسلين الحسين النسيب
بلد حلّ خير النبيين فيه
أحمد صفوة القريب المجيب

صالح الحلبي (أبو أحمد المارعي 1907 - 1987م): من مدينة مارع في ريف حلب، من أتباع الطريقة النقشبندية، وهو شاعر القصيدة والموال والموشحات والقُدود والمدائح النبوية، التي غناها المطربون أو المنشدون في حلب أمثال: صبري مدلل وصباح فخري وحسن حفار وغيرهم⁽⁹⁶⁾. ومن أشعاره:

هياً لنقضي في الوصالِ زمانا
طرباً ونُدلي في الغرامِ بيانا
بلد حلّ خير النبيين فيه
أحمد صفوة القريب المجيب
ونسّم وردًا قد سقته عيوننا
عقيانَ دمعٍ فاستهَلَّ جُمانا
فعلاجُ مرضى الحَبِّ وصل حبيهم
وعلاجنا فيه الرضا وشفانا
وشعارُ أهل العشق ذلّ نفوسهم
وشعارنا في الحَبِّ سفكُ دمانا

(95) انظر: <https://www.almoajam.org/lists/inner/1475> وأيضاً https://islamsyria.com/site/show_cvs/49

(96) موقع جواهر حلب: <http://www.aleppojewels.net/page.php?id=192>

يومَ النوى لفراقكم مرجانا

لا تعجبوا من دُرِّ دمعي إذ غدا

رشيد الراشد التادفي (-1880 1989م): عالم وشاعر صوفي، أخذ الطريقة النقشبندية من جماعة أبي النصر، وله كتب غزيرة تصل إلى أكثر من خمسين كتابًا، ومنها: مجموعة قصائد ونشائد صوفية نبوية، والروضة الندية في القصائد الغزلية، ومجموعة قصائد وفوائد واستغاثات ربانية، وأكثر كتبه شهرة هو كتاب: الدر المنظم في وجوب محبة السيد الأعظم⁽⁹⁷⁾. ومن أشعاره:

فتهتز البرايا إن تكلم

وينشدنا أغاني الحب صرفًا

فيشفي قلب مفؤودٍ مكلم

يضع شذاه في شرقٍ وغربٍ

سوى ما فيه من فضل مسلم

ولا عيب بساحته نراه

وفضل يديه كل الناس عمم

أيا من جل علمًا واقتدارًا

وحاز بسعيه من كل مغنم

وشاد من المكارم بيت عزّ

وكم أظهرت حقًا كان يهضم

فكم من تائه أرشدت يومًا

أما الشعر الشعبي الذي يختلف عن شعر القصيدة الفصيحة المقفاة، فهو شعر الموالم الصوفي الذي كُتب خصيصًا للإنشاد الصوفي ويسمى الموالم السبعاءوي، وله أسماء أخرى مثل: البغدادى، والتعماني، والشرقاوي وغيرها، «والسبعاءوي الحلبي، فمؤلف من سبع أبيات على البحر البسيط، باللهجة المحكية التي سادت في مدينة حلب قبل أكثر من مائة عام، ويتضمن ألفاظًا فصيحة غير معربة»⁽⁹⁸⁾، نذكر منه على سبيل المثال الموالم السبعاءوي الذي غناه صباح فخري أشهر مطربي حلب:

يا لائعي في الهوى العذري كفاك شجار

ما أنت ملوع ولا عالم بحالي اش جار

ظلم اللي أحبه عدل مهما بحكمه اش جار

راضي ولو صرت عند أهل العشق عبره

عالجت روجي فلم أحصل لها عبره

يا قلب انعي ويا عين اذرفي عبره

تروي وتنبت بقاع الماحالات اشجار

”لم ينتشر في حلب ضرب من الشعر الشعبي الغنائي مثلما انتشر الموالم، وقلما تخلو السهرة من صوّيت أو أكثر يتعاورون غناء المواويل حتى مطلع الفجر وفي السهرات الدينية يتخلل الوصلة الغنائية من الموشحات والقصائد

(97) https://islamsyria.com/site/show_cvs246/

(98) محمد قدرى دلال، القدود الدينية: بحث تاريخي وموسيقي في القدود الحلبية، ص37.

الدينية غناء المواويل الصوفية والزهدية الحكمية والمدحية بالرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم⁽⁹⁹⁾.
 ”وتشكل المواويل السبعاوية في حلب تسعين في المئة من مجموع المواويل الحلبية، والموال السبعاوي يشمل على سبع خانات تنتهي الثلاث الأوليات منها بكلمة، وتنتهي الثلاث التاليات بكلمة واحدة غيرها، وتنتهي الخانة السابعة بالكلمة التي انتهت بها الثلاث الأوليات⁽¹⁰⁰⁾. وكان محمد عاصي أكثر نظام حلب إنتاجاً للمواويل الدينية ونذكر منها:

هل للربيع وزها والخير عاود بهم
 وتنور الكون بعد الكان داجي بهم
 في مولدك روح للمشتاق دايم بهم
 يبكي من الشوق نحوك إن سرت عيسا
 رحمه وهداية كنت لا عل أو عيسى
 انت الرسول الذي بشر به عيسى
 بل دعوة الحق لإبراهيم: وابعث بهم⁽¹⁰¹⁾

ومن شعراء هذا الفن في حلب: أحمد صيداوي، محمد الشامي، عمر فتحي، صالح المارعي، مصطفى قرنة، طاهر الملاح، محمد جليلاتي، أحمد مشهداني، مصطفى سنده، محمد أحمد سرميني، ويحكى أن سعيد الحايك هو أول من ابتدع الموال السبعاوي الذي يقول:

من بنت وهب استنار الكون بولادها (بولادتها)
 وانهر إيوان كسرى، وانحنى بولادها (حديده)
 أكرم بطه، وبالزفرا، وبولادها (أولادها)
 من شرفوا الكون في سيرهم وازواحهم (ذهاهم ومجيتهم)
 أهل العبا من أنسو جبريل برواحهم
 روجي فدا من دفوا الأمجاد برواحهم (أرواحهم)
 بقولب صاغ داوود بولادها (دروعها الفولاذية)

وغنى الموال السبعاوي كثير من مغني حلب ومنتشديها، منهم: صباح فخري، حسن حفار، محمد خيرى، أديب الداخ، وأحمد الفقش، وغيرهم⁽¹⁰²⁾.

(99) عبد الفتاح رواس القلعة جي، التواشيح والأغاني الدينية في حلب، ص 86.

(100) حسن أحمد خياطة، موسوعة المواويل الحلبية، (حلب: دار القلم، 2009م)، ص 15.

(101) المواويل الحلبية، ص 187.

(102) انظر: التواشيح الدينية، ص 88، 90.

4. الفن التشكيلي

حلب مدينة عريقة في صوفيّتها وفنّها، حضرت فيها الفنون المختلفة منذ أقدم العصور، وقد برز في مدينة حلب فنانون تشكيليون كانوا من رواد الفن التشكيلي في سورية، أمثال: فاتح المدرس ولؤي كيالي ووحيد مغاربة، وغيرهم.

لئن كان التصوف ركناً أساساً في بناء هوية مدينة حلب التاريخية والفكرية والاجتماعية، فمن الطبيعي أن يتأثر الفن التشكيلي منذ بدايته، ابتداءً من فاتح المدرس في ستينيات القرن الماضي، بالثقافة الصوفية (لوحة الدراويش لفاتح المدرس مثلاً)، وقد تطور إلى أن أصبح التعبير عن أفكار الصوفية وتصوراتهم ورموزهم موضوعاً أساسياً لبعض فناني حلب، ومنهم:

وليد كموش (1948م)⁽¹⁰³⁾: فنان تشكيلي حليبي، درس في كلية الفنون الجميلة في دمشق عام 1981م، ودرّس في معهد إعداد المدرسين ومركز الفنون الجميلة في حلب، تأثر بالبيئة الصوفية في حلب، خصوصاً الزوايا أو التكايا التي يزورها في طفولته، فجاء الجزء الأكبر من لوحاته الفنية التي بدأها عام 1998م معبراً عن الأفكار الصوفية ورموزها بمضامين وجودية وأخلاقية وجمالية لافتة.

وقد رسم الفنان كموش الطقوس الصوفية المختلفة، منها: المسيرة الصوفية والمولوية والرقص الصوفي وبعض شيوخ الطرق في مدينة حلب⁽¹⁰⁴⁾.



(103) حصل الباحث على اللوحات من الفنان نفسه.

(104) مقابلة مع الفنان وليد كموش في مدينة إسطنبول بتاريخ 2020/10/3م.



عبد المحسن خانجي (1950م)⁽¹⁰⁵⁾: فنان تشكيلي حليبي، لم يدرس في كلية الفنون الجميلة، لكنه طور تجربته الفنية الخاصة بالاعتماد على ذاته، كما أسس صالة خاصة لعرض الفن التشكيلي في مدينة حلب (كاليري خانجي للفنون الجميلة) عام 1990م، وقد أدخل مادة النحاس كمادة أساسية في التشكيل الفني بين 1975-1995م، وأقام أكثر من 45 معرضًا في الكثير من دول العالم، ومنها عشرة معارض في الفن التشكيلي الصوفي، منها معرض⁽¹⁰⁶⁾ المولوية بين الحركة والسكون، وهو المعرض الذي أحدث ضجة ثقافية قوية في سورية ذاك الوقت.



وقد تميزت لوحاته بالاتكاء على الأفكار الصوفية ورموزها، إضافة إلى التعبير عن وجدانيات الصوفية

(105) حصل الباحث على اللوحات من الفنان نفسه.

(106) موقع الفن السوري الحديث التابع لوزارة الثقافة السورية <http://syrianart.gov.sy/web/arabic/index.php?node=52&cid=378>

وأذواقهم وحالهم الروحي، خصوصًا لوحاته التي أطلق عليها الفنان نفسه اسم «البُنَيَات»، إذ استخدم اللون البني فقط للدلالة على لون الأرض، قداسة المادة التي خلق منها الإنسان، إضافة إلى اللون الأزرق (الخرزة الزرقاء) للدلالة على السماء، وما تحمله من معانٍ قدسية واضحة عند الصوفية، وقد تقصد البعد التجريدي في لوحاته، التي يرسم فيها الإنسان على شكل ذرات تراب منثورة بين السماء والأرض⁽¹⁰⁷⁾.



5. فن الخط الحروفي

تعد هندسة الخط العربي عنصرًا مهمًا من عناصر هوية الحضارة الإسلامية الغنية وأحد مظاهر غناها وتنوعها، وكان تقعيد هذا العلم ووضع أصول وقواعد خاصة وثابتة له أمرًا يعبر عن المكانة المتميزة التي حظي بها في تاريخ الحضارة الإسلامية، الذي تركت التحولات الحضارية أثرها فيه.

ولأن حلب حاضرة إسلامية مهمة، اشتهر أهلها «بحسن الخط كما اشتهروا بفن الموسيقى وحسن الصوت. وكان الناس في الشهباء يعتبرون حسن الخط مزية كبيرة وبابًا عظيمًا من أبواب الغنى، حتى اشتهر بين الحلبيين قولهم الجاري مجرى المثل عندهم: (حسن الخط سوار من ذهب)»⁽¹⁰⁸⁾، وقد أكمل عدد من خطاطيها في القرن العشرين السير على الأصول والقواعد التي سار عليها الخط العربي خلال تاريخه، كما ظهر في حلب تيار آخر عمل على تجاوز التقاليد التي اعتاد عليها الخطاطون بطريقة مبدعة أغنت الحياة الثقافية في حلب، ومنهم الخطاط إبراهيم الرفاعي (-1904/1983م)، وبشير الإدلي.

(107) مقابلة صوتية عبر «الواتساب» مع الفنان عبد المحسن خانجي بتاريخ 2020/10/11.

(108) الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج1، ص140.

أما الخطاط محمد عماد محوك⁽¹⁰⁹⁾ (المولود في حلب عام 1959م) فإنه يحيا تجربته الصوفية الخاصة - بكل طقوسها المعروفة عند أهل التصوف كالحال والسكر والحضرة والتجلي والترقي - أثناء تشكيل لوحته الحروفية، والتي تحضر فيها إبداعات هندسية فنية جمالية لم يعرفها الخط العربي من قبل.



وإذا كان عماد الدين النسيبي (شهيد التصوف في حلب) صاحب الدعوة الحروفية قد اتكأ على الحرف ودلالاته الرمزية في فهم الوجود، فإن محوك أكمل مسيرة النسيبي، لكن عبر خلقه أشكالاً مبدعة ومبتكرة تعبر عن المضامين الروحية المتعددة للحرف العربي.



(109) مقابلة مع الخطاط محمد عماد محوك في إسطنبول بتاريخ 2020/10/12، وحصل الباحث على اللوحات من الفنان نفسه.

وأيضًا، إذا كان الخطاط عماد محوك قد عبر بالحرف عن تجربته الصوفية، فإن الفنان سعيد الطه (1951م) بزعته الفنية قد حوّل الحرف إلى لوحة تشكيلية مبدعة بأسلوب تجريدي يعتمد على «إضفاء المناخات الروحية المدهشة من خلال الحوار الهرموني للأشكال والألوان، التي تحمل المشاهد إلى عوالم غير مألوفة في أرض الواقع وإكسابها مسحة صوفية غنية»⁽¹¹⁰⁾.



(110) طاهر البني، «سعيد الطه من التعبيرية إلى التجريد الصوفي»، الحياة التشكيلية، العدد: 67، (2000م)، ص 68. ومصدر اللوحة من:

خاتمة

حلب مدينة صوفية، لم تحضر فيها السلفية (بأشكالها العلمية والحركية والجهادية كلها) يوماً، وإن حضرت فهي ظاهرة فردية لا تملك حاضنة اجتماعية تعبر عنها، ودليلنا على ذلك وجود جماعة غرائب الشام في شرق حلب التي أسسها أبو القعقاع قول أغاسي في صناعة مخبراتية أسدية غريبة عن طبيعة المجتمع في مدينة حلب، كان الهدف الرئيس من صناعتها تعطيل المشروع الأميركي في العراق من خلال إرسال المقاتلين الإسلاميين إلى هناك.

وبخلاف ما ذهب إليه باحثو الكتاب المعنون بـ«الإسلام النائم - التصوف في بلاد الشام»⁽¹¹¹⁾، فإننا نعتقد أن التصوف ليس إسلامًا نائمًا في مدينة حلب، يشهد على ذلك تعدد المؤسسات الصوفية فيها (المدارس والطرق وغيرها)، وتنوع أثارها التي أغنت الحياة الثقافية بكل تجلياتها الأدبية والفنية والفكرية، ما أسهم إسهامًا حيويًا في بناء المنظومة الفكرية والاجتماعية والقيمية في حلب.

فلم تكن الحركة الصوفية امتدادًا لتاريخ التصوف في مدينة حلب وتطورًا فحسب، إنما أيضًا جاءت استجابة لطبيعة حلب التجارية والصناعية التي وجدت طريقها إلى الإسلام من باب التصوف بوصفه تدينًا لينًا يحقق أهدافها وغاياتها.

وقد تركت القيم الصوفية الأساسية أثرها الواضح في بناء المجتمع الحلبّي، وخاصة قيمة التسامح التي أسهمت في التعايش السلمي بين مختلف المكونات الدينية والفكرية والاجتماعية والإثنية لمدينة حلب.

وأسهمت قيمة التواضع ذات المنشأ الصوفي كثيرًا في تهذيب الشخصية الحلبية التي يعتز أبنائها بأنها أقدم مدينة في التاريخ، وبأنهم أهل صناعة وتجارة وفن، إضافة إلى ترسيخ الطرق الصوفية لقيم المساواة بين المريدين والأتباع بغض النظر عن اختلاف طبقاتهم الاجتماعية الغنية أو الفقيرة، ومن ذلك على سبيل المثال إقامة دار نهضة العلوم الشرعية (الكتاوية) كمدرسة خاصة بأبناء الريف الفقير المحيط بحلب أسوة بنظيرتها في حلب المدرسة الشعبانية الخاصة بأبناء المدينة فقط.

تركت الطقوس الصوفية، مثل الحلقة والذكر الجماعي والإنشاد المشترك، أثرها الكبير في نمط الحياة الاجتماعية القائمة على طقوس المشاركة الجماعية المتعاونة في المناسبات الاجتماعية والدينية بمثل الاحتفال بالمولد النبوي، وليلة النصف من شعبان، والأذان الجماعي، وغيرها.

إن تقديرنا الإيجابي للدور الذي قامت به الحركة الصوفية في الحياة الاجتماعية والفنية والأدبية لا يحجب عنا موقفنا من الثورة السورية عام 2011م، الذي شهد انقسامًا عاموديًا حادًا كما هو حال انقسام المجتمع السوري عمومًا؛ إذ عارض جزء من الحركة الصوفية في حلب النظام الأسدّي بالوسائل الدعوية والسياسية والعسكرية كلها، وبعضهم اتخذ موقفًا رماديًا صامتًا يحفظ به مكاسبه من السلطة وينال من خلاله شرف المعارضة لها، لا سيما في جلساتهم الخاصة، بينما كان الطرف الثالث الذراع الديني والإعلامي للسلطة الإجرامية الأسدية في حربها على الشعب السوري منذ عام 2011م حتى الآن.

(111) هناك كتاب جماعي صدر عام 2013م عن مركز المسبار للدراسات والبحوث، بعنوان: (الإسلام النائم - التصوف في بلاد الشام)، وصف به الباحثون المشاركون الحياة الصوفية في سورية ولبنان وفلسطين والأردن.

المصادر والمراجع

1. الخاني. عبد المجيد بن محمد، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية، ط2، (أربيل: دار نارس للطباعة والنشر، 2002م).
2. السخاوي. محمد بن عبد الرحمن، المقاصد الحسنة، محمد عثمان الخشت (محققًا)، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1985).
3. الصيادي. أبو الهدى، الطريقة الرفاعية، (مصر: دار السعادة، 1325هـ).
4. الطباخ. محمد راغب، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، محمد كمال (محققًا) ط2، (حلب: منشورات دار القلم العربي، د.ت).
5. العسكري. عبود، تاريخ التصوف في سوريا: النشأة والتطور، الزمان، المكان، الإنسان، (دمشق: دار النمير، 2006).
6. الغزي. كامل بن حسين الحلبي، نهر الذهب في تاريخ حلب، ط2، (حلب: دار القلم، 1419هـ).
7. القاسبي. محمد جمال الدين، موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، عاصم بهجة البيطار (محققًا)، ط1، (بيروت: دار النفائس، 1981م).
8. الكيلاني. عبد القادر، الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل: في الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية، أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة (واضع الحواشي)، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1997).
9. الكيلاني. ميعاد شرف الدين، الطريقة القادرية أصولها وقواعدها كما أرساها الإمام عبد القادر الكيلاني، (بيروت: دار كتاب ناشرون، 2014م).
10. النهان. محمد فاروق، الشيخ محمد النهان: شخصيته، فكره، آثاره، (حلب: مكتبة دار التراث، 1423هـ).
11. باذنجي. حسن سائد باذنجي، الزاوية الباذنجكية وأصولها العريقة وفروعها، (حلب: دن، 1430هـ).
12. _____، المدرسة الطرنطائية: موقعها، تاريخها، وصفها المعماري، أعلامها، (حلب: دن، 1430هـ).
13. بطاطو. حنا، فلاحو سورية: أبناء وجهائهم الريفيين الأقل شأنًا وسياستهم، عبد الله فضل ورائد النقشبندي (مترجمان)، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014م).
14. بكرو. كمال الدين، التعليم الشرعي في حلب منذ عام 1918م إلى عام 1958م، (د.م: دن، 1998).
15. بيريه. توماس، الدين والدولة في سوريا، حازم نهار (مترجمًا)، (إسطنبول: مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر، 2020م).
16. خياطة. حسن أحمد، موسوعة المواويل الحلبية، (حلب: دار القلم، 2009م).

17. دلّال. محمد قدري، القدود الدينية: بحث تاريخي وموسيقي في القدود الحلبية، (وزارة الثقافة، 2006م).
18. رواس القلعة جي. عبد الفتاح، التواشيح والأغاني الدينية في حلب، (الكويت: مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2006م).
19. سراج الدين. عبد الله، التقرب إلى الله تعالى: فضله، طريقه، مراتبه، ط2، (حلب: دار الفلاح، 1997).
20. سراج الدين. عبد الله، سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - شمائله الحميدة، وخصاله المجيدة، ط7، (حلب: دار الفلاح، د.ت).
21. عباس. حسان، الموسيقى التقليدية في سوريا، (بيروت: منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة اليونسكو، 2018م).
22. عيسى. عبد القادر، حقائق عن التصوف، ط16، (حلب: منشورات دار العرفان، 2007).
23. كاتبي. عدنان، التعليم الشرعي ومدارسه في حلب في القرن الرابع عشر الهجري، (حلب: مديرية الكتب الجامعية، المطبعة الرقمية، 2006).
24. مسعود. محمد زكريا، صور ومواقف من أعلام الطريقة النقشبندية في بلاد الشام المباركة، (دار فصلت، 2009م).